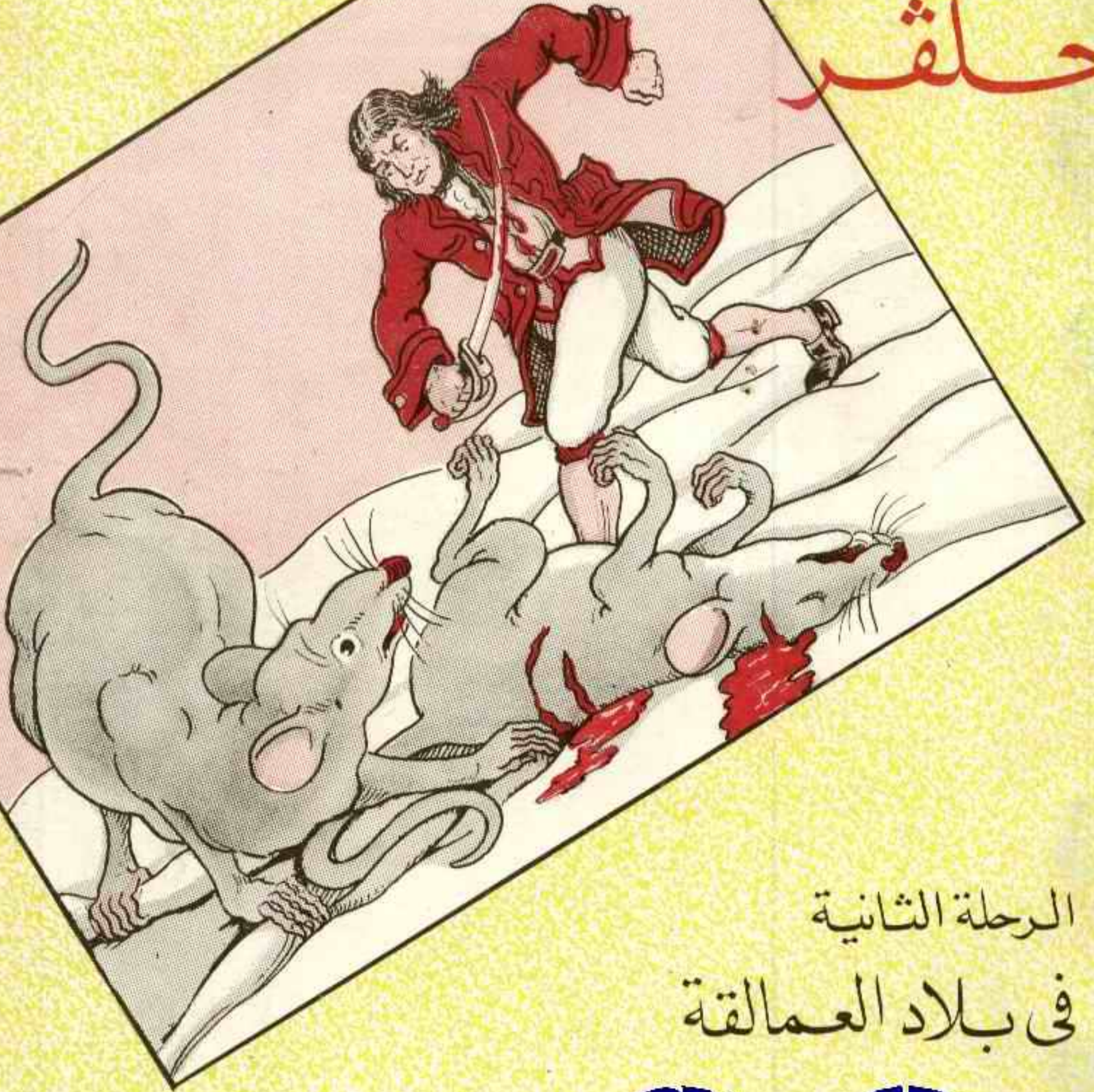


أشهر القصص

كامل كيراني

جالتغر



الرحلة الثانية
في بلاد العمالقة

DVD ARAB



دارالمعارف

كامل كيسانى

أشهر القصص

جَلِيقَةُ كَر

الرَّجُلَةُ الْيَانِيَّةُ
فِي بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ

الطبعة العاشرة



دار المعارف

في بلاد العماليق

الفصل الأول

١ - دواعي السفر

لَمْ يَمُرَّ عَلَى عَوْدَتِي إِلَى وَطَنِي شَهْرَانِ حَتَّى ضَجِرْتُ بِحَيَاةِ الرَّاحَةِ ،
وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى السَّفَرِ ، وَشَمَرْتُ بِشَوْقٍ شَدِيدٍ - لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى دَفْعِهِ -
إِلَى الرَّحِيلِ ، وَرَغْبَةً حَارَّةً فِي السِّيَاحَةِ وَرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الْغَرِيبَةِ . وَقَدْ تَمَلَّكَ عَلَيَّ
حُبُّ الْأَسْفَارِ كُلِّهَا ، فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَظْمَنَ ، وَتَرَكْتُ لِرُؤُوسِي خَمْسَ مِائَةِ
جَنِيهِ ، وَاكْتَرَيْتُ لِسُكْنَاهَا مَنْزِلًا فِي « كَرْدِيف » ، وَأَخَذْتُ مَا بَقِيَ مِنْ
ثَرَوَتِي ؛ فَشَرَيْتُ بِبَعْضِهِ بَضَائِعَ اتَّجِرُ فِيهَا . لِأَثَمَرٍ مَالِي وَأَزِيدَ فِي ثَرَوَتِي .
وَكَانَ عَمِّي قَدْ تَرَكَ لِي - بَعْدَ وَفَاتِهِ - أَرْضًا يُقَدَّرُ زَيْعُهَا بِثَلَاثِينَ جَنِيهَا .
وَقَدْ شَجَّعَنِي ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى السَّفَرِ : فَقَدْ أَصْحَبْتُ لَا أَخْشَى - عَلَى أَسْرَتِي -
أَلَمَ الْهَلَاكَةِ وَمَضَاضَةَ الْجُوعِ وَالْإِلْتِحَاءِ إِلَى التَّكْفُفِ وَالشُّوَالِ .

وكان ولدي يتعلم اللاتينية في المدرسة، وابنتي تَخِيطُ الملبس وتُطَرِّزُها
لِتُنْفِقَ على بَنَتَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ .



ولم أتردد في عزيمتي على السفر - بعد أن
اطمأنت نفسي على مستقبلِ أُسْرَتِي - فودَّعْتُ
زَوْجِي وولدي وابنتي . وقد بَكَوْا حين دَنْتُ
ساعةُ الفِراقِ ؛ ولكنني تَحَمَّلْتُ ، واعتصمتُ
بالصَّبْرِ ، وصعدتُ - بشجاعةٍ - إلى السفينةِ
« أفاتور » ، وهي سفينةٌ تجاريةٌ كبيرةٌ تستطيعُ
أن تحملَ ثَلَاثِمِائَةَ طُنٍّ ، وكان رُبَّانُهَا من « ليفرپول » ، وهي مُبْحِرَةٌ
إلى « سورات » .

٢ - هُوبُ العاصفةِ

وكأنما قضى الله على أن تكون حياتي - في هذه الدنيا - حياةً مضطربةً ،
وأن أقضي عمري دائمَ الأسفارِ ؛ لا يَقْرُّ لي قرارٌ ، فاستبدلتُ بِحياةِ الخفضِ
والدَّعةِ حياةَ القلقِ والإقحامِ .

وقد أَقْلَعَتِ السَّفِينَةُ بي في اليومِ العَشرِينَ من يونيو عام ١٧٠٢ م . وكان
الهواءُ رُحَاءً وَالجَوُّ صَافِيًا ، وما زالت السفينةُ سائرةً حتى وصلت إلى « رَأْسِ
الرَّجَاءِ الصَّالِحِ » ، حيثُ ألقينا مَراسِينَا لِنَسْتَرِيحَ قَلِيلًا . وكان رُبَّانُنَا قد
أُصِيبَ بِالْحُمَى ؛ فلم نَسْتَطِعْ أن نغادرَ ذلكَ المكانَ إِلَّا في آخرِ شهرِ مارسِ .
وَتَمَّةً أَقْلَعَتِ بنا السفينةُ . وما زالت تَمُخَّرُ بنا عُبَابَ البَحْرِ - وَالجَوُّ صَافٍ
والريحُ معتدلةٌ . وَالسِّيَاحَةُ مَوْفَقَةٌ سَعِيدَةٌ - حتى وصلنا إلى جزيرة « مدغشقر »
حيثُ سِرْنَا إلى شمالِ هذهِ الجَزِيرَةِ . وكانتِ الرِّيَّاحُ تعتلدُ في هذهِ الجِهاتِ
من أولِ ديسمبرِ إلى أولِ مايو . ولكنَّ هُبُوبُهَا - لِوَاءِ حَظَّنَا - بدأ يشتدُّ في
التاسعِ والعِشرِينَ من أبريل . وما زالت تَعْنَفُ وتَثُورُ عِشرِينَ يَوْمًا تَبَاعًا ؛
فاندَفَعْنَا - في هذهِ الأثناءِ - إلى شرقيِّ « جزائرِ الملوك » ، في الدرَجَةِ الثالثةِ
تقريبًا من شمالِ خطِ الإِسْتِواءِ ؛ ذلكَ ما قدَّرَهُ الرُّبَّانُ . وَكُنَّا في
اليومِ الثاني من شهرِ مايو . وقد هدأتِ الرِّيَّاحُ الثَّائِرَةُ ، ولكنَّ الرُّبَّانَ قد
أندَرْنَا بِاقْتِرَابِ عاصفةٍ أَشَدَّ . وكان ذلكَ الرُّبَّانُ من أَوْسَعِ المَلاحِينَ خِبْرَةَ
بِتَغْيِيرِ الجَوِّ وتَقَلُّبِ البَحْرِ ، وقد أكسبته المَرانَةُ والتَمَرُّسُ بأحوالِ هذهِ
البحارِ حِصَافَةً نادرةً وَالْمَعِيَةَ لا تَكَادُ تُحْطَى . وقد أمرنا بأن نُعدَّ العُدَّةَ

لمكافحة العاصفة الهوجاء التي ستهب علينا في الغد .

وقد تحقق لنا صدق ما قال . وهبت علينا ريح الجنوب عيفة عاصفة . وكنا على أتم أهبة ؛ فطوينا الشراع وأمسكنا بالسارية ، ولكن العاصفة - لسوء الحظ - كانت تزداد شدة وعنفًا . ولم نجد لنا من حيلة تخفف من أضرارها إلا أن نسير حيث تكون الرياح خلفنا ؛ فأنزنت السفينة قليلًا ، وجعلنا الشراع الكبير بحيث لا يعارض العاصفة . ولكن خاب حسابنا ، وأخطأ ظننا ؛ فقد عنفت الريح ، ومزقت الشراع تمزيقًا ، واضطخبت الأمواج ، وظلت السفينة في عرض البحر لا يقر لها قرار . ثم أعقبت العاصفة ريح عاتية ؛ فدفعتنا إلى مسافة بعيدة لا أحسبها تقل عن خمسمائة ميل نحو الشرق ، فأصبحنا في مكان من البحر مجهول لا أعتقد أن سفينة قبلنا قد وصلت إليه ؛ وما أظن أن ربانا - بالغة ما بلغت خبرته بالبجار - يستطيع أن يعرف موقع هذا المكان النائي السحيق . ولم نكن نشكو - حينئذ - قلة الزاد ، ولم نصب سفينتنا بعد كل هذه العواصف بمطب ، ولم يمرض أحد من رجالنا ، على ما كابدوه من الغناء والشدة . ولم يكن يعوزنا حينئذ إلا الحصول على الماء العذب .

٣ - في أرض العمالقَة

وفي اليوم السادس من يونيو عام ١٧٠٣ م ، كان أحد ملاحينا مُعتليًا ذرورة السارية ، فلاحته له الأرض من بعيد . وما أخبرنا بذلك ، حتى ولينا سفينتنا شطرها . ولما جاء اليوم السابع عشر رأينا اليابسة بوضوح ، ولم نستطع أن نعرف أين نحن ؟ وهل وصلنا إلى جزيرة كبيرة ، أم قارة مجهولة ؟ فاقربنا منها ، وألقينا مراسي السفينة ، وأرسل ربانا اثني عشر ملاحًا في زورق صغير ، ومعهم أسلحتهم ؛ ليدافعوا عن أنفسهم إذا دهمهم خطر ، وقد أوصاهم الربان بالبحث عن ماء في هذه الأرض ، وأعطاهم أوامرًا ليملئوها ماء ، فاستأذنت الربان في مصاحبتهم ، فلم يتردد في الإذن لي . ولم نهبط تلك الأرض حتى سيرنا باحثين عن نهر أو عين ماء ؛ فلم نر فيها أثرًا واحدًا يدلنا على أنها مأهولة بالسكان . فسار رجالنا بالقرب من الشاطئ ليجثوا عن الماء ، وسرت أنا - لسوء حظي - منفردًا . وقد دفعني حُب الاستطلاع إلى التوغل في تلك الجهة نحو ميل ؛ فوجدتها أرضًا صخرية مُجدبة قراء . ثم أدركني

التعب والملل؛ فرجعت متباطئاً في سيري من حيث أتيت. وبيننا أنا
مقرب من الشاطئ إذ رأيت رفاقي يجذفون بسرعة شديدة، وغبه في
إتقاذ حياتهم من الهلاك، ورأيت عملاقاً هائل الجسم يتعقبهم بسرعة
شديدة. ولكن رفاقي كانوا على بعد نصف ميل من ذلك العملاق؛ فلم

يستطع اللحاق بهم.

وما رأيت ذلك حتى
أسرعت بالفرار متسلقاً
قمة جبل وعمر. ثم
نظرت فرأيت مرجاً، وقد
تملكني العجب من
ارتفاع حشائشه إلى عشرين
قدماً. فدمت أشد الندم
على مجازفتي بالخروج إلى



هذه الجزيرة، والسير فيها بعيداً عن رفاقي، وعلمت أن حب الاستطلاع
قد ساقني إلى الحثيف والهلاك. ولكنني رأيت الندم لا يبيده، فأسلمت

أمرى إلى الله، ومشيت في طريق كبيرة تنتهي بحقل مزروع شعيراً،
فسرت قليلاً دون أن تقع عيني على إنسان. وكان وقت الحصاد قد دنا،
ونضجت سنابل القمح، ووصل ارتفاعها إلى أربعين قدماً أو أكثر.

فسرت ساعة من الزمن دون أن أصل إلى نهاية الحقل، وكان يحيط به
سياج عال يبلغ ارتفاعه أكثر من مائة وعشرين قدماً. وقد عجبت
لضخامة الأشجار في هذه البلاد، وطولها الذي لا يكاد يتصوره عقل؛
حتى ليستحيل علي أن أقدر ارتفاعها. وبحثت طويلاً عن ثغرة في ذلك
السياج لأتخذ منها إلى الحقل. وإني لكذلك إذ وقع نظري على عملاق
آخر في الحقل المجاور؛ فرأيتته في مثل طول العملاق الأول الذي كان
يتعقب رفاقي الهارين!

٤ بين سنابل القمح

وهنا علمت أنني في بلاد العمالقة؛ فقد كان كل رجل منهم في مثل
ارتفاع المئذنة. وكانت مسافة خطوته نحو تسعة أمتار. فتملكني
الدعور، وكاد ينخلع قسي من شدة الهلع؛ فأسرعت أحاول الاختفاء بين

سنايل القمح ، وانسلت من ثغرة قريبة ، فلمحت العملاق من بعيد
وبعد قليل صاح بصوت كالرعد القاصف ، يكاد يصم الأذان : فحضر إليه
سبعة رجال - في مثل طولِه وضخامته - وفي يد كل واحد منهم منجل
صغير في حجم سِتِّ مناجل كبيرة من مناجلنا . وكان زِيهم يدلُّ على
أنهم خدامٌ لذلك السيد ؛ فقد جاءوا مُلئين نداءه ، وأقبلوا يحصدون سنايل
القمح بمناجلهم - حيث كنت مُختبئًا - فجريت مبتعدًا عن مكانهم .

ولم يكن من اليسير عليَّ أن أنطلق في عدوي :
فقد كانت سنايل القمح - لشدة تقاربها - تكاد
تلتصق ، وكان بعضها لا يبعد عن بعض إلا
بمقدار قدمٍ واحدة .



على أني بذلت جهدي حتى وصلت إلى آخر
مكانٍ أستطيع الوصول إليه ، إذ اعترضتني
كوماتٌ من السنايل المُشبكة . ولقد حاولت أن أخرقها أو أجوس
خلالها ، فلم أجد إلى ذلك سبيلاً : فقد جف كثيرٌ منها ، وأصبح حسكها
شائكًا مُدببًا قويًا كأطراف المدى ؛ فخشيت أن ينفذ إلى جسي

فيهلكني . وسمعت أصوات الحاصدين على مسافة قريبة مني ، وكان الإعياء
قد بلغ مني كل مبلغ ؛ فتملكني اليأس بعد أن خارت قواي ، فرقدت
بين أخذودين من الأخاديد التي شققها المحراث ، وقد بيست من الحياة .
وذكرت وطني العزيز ، وتصورت أرملي وولدي اللذين أوشكا أن
يتيتما ، وندمت أشدَّ الندم على جنوني الذي دفعني إلى هذه الرحلة
المشومة ، مخالفًا نصيحة خالصي وتشفع أهلي بي ألا أفارقهم ، وأيقنت
أن آخرتي قد دنت . ثم ذكرت بلاد « ليلبوت » التي فررت منها ،
وكيف كنت فيها عملاقًا هائلًا بين أقزام صغار ، وكيف استطعت أن
أستولي - بمفردي - على أسطول إمبراطورية بأسرها ، وكيف قمت
وحددي بأعمال جليلة باهرة ستنبى خالدة على مرِّ الدهور في تلك البلاد ،
وسيتبئها التاريخ فلا يصدقها ذراريُّ الأقرام وحفدتهم - لغرابتها وبعدها
عن مألوفهم - وإن أجمع أسلافهم على أنهم رأوها رؤيَةَ العيان .

ورأيت الفرق شامعًا بين الحالين ، ففاضت نفسي باللوعة والألم ، فقد
انتقلت حالي من الضدِّ إلى الضدِّ ، وأصبحت في هذه البلاد - لفرط ضآلتي -
ألوح لأهلها كما كان يلوح لي أقزام « ليلبوت » . ولعل هذا هو أهون

ما ألقاه من الشقاء في هذه البلاد : فقد أفسنتني التجربة والملاحظة أن
المخلوقات الإنسانية تكثر قوتها ويشد طغيانها ، كلما قوى بأسها
واشدت قوتها . وثمة أصبحت أترقب الهلاك بين لحظة وأخرى ،
وأتوقع أن يمزقني أول من يظفر بي من هؤلاء العمالقة ، وأن يزدردني
بسهولة .

٥ - في قبضة عملاق

لقد صدق الفلاسفة حين قالوا : إنَّ الكبر والصغر أمران نسبيان ؛
فليس في الدنيا صغير مطلق أو كبير مطلق ، ولكن الشيء إذا قيس إلى
غيره ظهر كبره وصغره بالمقايسة . ومن يدري ؟ فقد يضادف أقزام
« ليليوت » أمما أخرى غاية في الضلالة ، فيجدون أنفسهم بينهم - كما
وجدت نفسي بالقياس إليهم - عمالقة بين أقزام !

ومن يدري ؟ فلعل عمالقة هذه البلاد إذا ووزنوا بغيرهم من الأمم
المجهولة التي لم تكشف بعد ، أصبحوا - بالقياس إليهم - أقزاما ضئلا
بين عمالقة كبار !

ولا غرو في ذلك ؛ فقد كنت عملاق عمالقة في بلاد الأقزام ، ثم
أصبحت قزم الأقزام في بلاد العمالقة . وهكذا :

« يُسْتَصَغِرُ الْحَيُّ الْحَقِيرُ ، وَتَحْتَهُ أُمَمٌ تَوَهُمُ أَنَّهُ جَبَّارٌ »

...

وإني لفارق في هذه الأفكار الفلسفية التي
ملأت نفسي في هذا الموقف الحرج الرابع ،
إذ رأيت أحد الحاصدين على مسافة ثمانية أمتار
من الأخدود الذي اختبأت فيه ؛ فامتلات نفسي
رُعبا ، وخشيت أن يتقدم إلى الأمام خطوة
واحدة ، فيسحقني بقدمه سحقا ، أو يهوى



بمنجله إلى سنبل القمح ، فيقطع جسعي معها شطرين . وما رأيته يرفع
قدمه ليخطو خطوة أخرى حتى صرخت صرخات مؤلمة قوية ، وقد ملأ
الرعب نفسي . فوقفت العملاق فجأة ، وأخذ يتأمل فيما حوله وينعم
النظر في الأرض ، ليرى مصدر هذا الصوت الخافت الذي طن في أذنيه ،
حتى اهتدى إلي ، فنظر متعجبا مدهوشا من ضآلة جسعي ، ودنا مني

— وقد اشتدَّ حذرُهُ — كما تَشْتَرِبُ نَحْنُ من حَشْرَةٍ صغيرة خِطْرَةٌ لا نَعْرِفُ كُنْهَهَا : وأمسكني من وَسْطِي — بِحَذَرٍ شديدٍ — بِحَيْثُ يَأْمَنُ كُلُّ خَطَرٍ، قَدْ أكونَ — في نظره — حَيوانًا سَامًّا . وكانَّما خَشِيَ أَنْ أَعْضَهُ أو أَخْدِشَهُ ؛ فذَكَرَنِي ذلكَ بِمَا فَعَلْتُ مع ابنِ عَرَسٍ كُنْتُ قد أَمسَكْتُهُ من وَسْطِهِ ، حتى لا يَعْضَنِي أو يَخْدِشَنِي .

ثم تشجّع قليلاً ، فأدنانِي حتى أصبحتُ على مسافةِ مِترٍ ونِصْفِ مِترٍ

من عَيْنِيهِ ؛ لِيَتَبَتَّ

من وَجْهِ بَدَقَةٍ .

وقد أدركتُ غرضه

— لأوَّلِ وَهْلَةٍ — فلم

أُبَدِّ أَيَّ مُقاومةٍ حتى

لا يُسِيءَ الظنَّ بِي ،



فِيُلْقِيَنِي من يده ، فأهْوَى من ارتفاعِ سِتِّينَ قَدَمًا أو أكثرَ . وقد شعرتُ بألمٍ شديدٍ ، فلم أُطِقْ ضَغْطَ أصابعه على جسمي ، وإن كان قد تَرَفَّقَ بِي جُهْدَهُ ، وحرَّصَ على أن يقبِضَ على جسمي ، حتى لا أنزَلِقَ من بينِ أصابعِهِ الكَبيْرةِ .

ولم يكن في قدرتي أن أقاومَ إرادتهُ ؛ فرفعتُ بصرِي إلى السَّماءِ ، وضمَّمتُ يديَّ إليه — كما يفعلُ المُتوسِّلُ الضَّارِعُ — واستعطفته بوضع كلماتٍ نَطَقْتُ بها بصوتِي الحزينِ المُتهدِّجِ . وقد كنتُ أخشى أن يُلْقِيَنِي بينَ لَحْظَةٍ وأُخرى إلى الأرضِ ، ويسْحَقَنِي بقدمه — كما نَسْحَقُ الحَشْرَاتِ الكَرِيهَةَ بأقدامنا لِنُهْلِكِهَا — ولكنَّ أسارىرَهُ قد تَطَلَّقتُ ، ووَجَّهَهُ قد تَهَلَّلَ بالبِشْرِ ، حينَ سَمِعَ صَوْتِي ورأى حركاتِي ، وأطالَ نظرهَ فِيَّ ، وقد بدَّتْ عليه الدَّهْشَةُ من ضالَّةِ جسمي ، واشتدَّ عَجْبُهُ حينَ سمعني أنطقُ بالفاظٍ — كما ينطقُ الآدَمِيُّ — وإن لم يفقهَ لها مَعْنَى . ولم أستطعُ أن أكفَّ عن التَّنَهَّدِ والزَّفَرَاتِ ، وهَمَلْتُ عَيْنَايَ بالدموعِ ، فقلتُ له ضارِعًا با كَيَا :

« شَدَّ مَا يُؤَلِّمُنِي لَمَسُ إِصْبَعَيْكَ ، يَا سَيِّدِي العَمَلِاقُ ! »

وكانَّما فطنَ لِمَا شعرتُ به من الألمِ — وإن لم يفهمَ قَوْلِي — فوضعتُ مَترَفَقًا في جَيْبِهِ ، وانطلقَ يَعدُّو إلى سيِّده الذي رأيتُهُ في الحقلِ من قبلُ ، وهو زارعٌ غنيٌّ . ولما رآني حتى دهَّشَ ، وأخذَ عودًا صغيرًا من الأرضِ — في حَجْمِ العصا التي نتوَكَّأُ عليها في بلادنا — ورفعَ بها أطرافَ ثَوْبِي وهو يَحْسِبُهُ غِطَاءً وهَبْتَنِيهِ لِي الطيِّبَةُ — كما تَهَبُّ لِلطُّيُورِ الرِّيشَ — وتَفَخَّ في

شعري ليتبين وجهي بوضوح. ثم نادى خدمه، وقال لهم - فيما فهمت من دهشته وإشاراته - إنه لم ير طوال حياته حيوانا في حقوله يشبهني. ثم وضعني على الأرض متلطفًا، فنهضت قائمًا، ومشيت أمامه جيئةً وذهابًا لأريه أنني غير طامع في الهرب. ثم جلسوا جميعًا، مُحيطين بي إحاطة الدائرة، وظلوا يرقبون حرّكاتي، فرغت قُبعتي لأحبيهم.

وأظهرت احترامي لذلك السيد، وانكفأت على قدميه ضارعًا إليه - بصوت جهوري - وأخرجت من جيبِي كيسَ نقودي، وقدمته إليه بخُضوع شديد؛ فقلبه حذرًا - عدة مرات - بـ «دبوس» كان في ثيابه، ولم يفهم ما هو. فأشرت إليه أن يُعيد الكيس إلى الأرض ثانية، وما أعاده حتى أخذته بيدي وفتحته، ووضعت في يده كل ما يحويه من الذهب فتأمله قليلًا، وأشار إلى برده إلى جيبِي، ولم يفهم منه شيئًا. وقد أيقنت أن ذلك الزارع قد اقتنع بأنني آدميٌّ عاقلٌ صغيرٌ وظلَّ يحدثني كثيرًا وأنا لا أفهم لكلامه معنى. وكان صوته يكاد يصمُّ أذني، وهو أشبه بجَلَجة طاحونة كبيرة، وكانت ألقاظه مترنةً واضحة المقاطع. فأجبتُه على كلامه - الذي لم أفهمه - بكلِّ اللغات التي أعرفها، بصوت جهوري؛ فكان

يُدني أذنه مِنِّي حتى تكونَ على قِدمِترٍ ونصفِ مترٍ من فمي، ولكنه لم يفهم شيئًا.

٦ - في بيتِ العملاق

وبعد قليلٍ صرَفَ خدمهُ إلى أعمالهم، وأخرج من جيبِهِ منديلًا طواه نصفين، ثم بسطه على صفحة يده اليسرى، ووضعها على الأرض، وأشار إلىَّ بأن أضعه على يده؛ فلم أجد صعوبةً في ذلك، فقد كانت يده أكبر من

جسمي كله. وقد خشيتُ

أن أهوى من يده

- إذا وقعتُ عليها - إلى

الأرض؛ فطرحتُ نفسي

فوق منديله متمدداً.

ثم ثنى المنديلَ على

فغطى جسمي كله، وحملني في يده إلى بيته. ثم نادى زوجته ليريه العجبة

التي حصل عليها. وما رأته حتى صرخت صرخاتٍ مُفرَّعةً، وتراجعت

إلى الوراء - كما تفعل نساؤنا إذا أبصرن وزغًا أو ضفدعًا سامًا أو عنكبًا -



ولكنها اطمانت إلى بعد قليل . حين رأت إشاراتى وحرركاتى وأعمالى ،
وكيف أفطن إلى الإشارات التى يبدىها لى زوجها ، ثم ألفت رؤيتى
وأحبتنى حبا شديدا .

ولما جاء وقت الظهر أعدت الخاديم مائدة العشاء ؛ فرأيت أكداسا من
اللحم فى صحفة قطرها نحو أربع وعشرين قدما . وجلس الزارع
وزوجه وثلاثة من أولاده وجدّة عجوز حول المائدة . وما استقرّوا فى
أماكنهم ، حتى أجلسنى الزارع فوق المائدة على مسافة قريبة منه .

وكان ارتفاع المائدة
لا يقل عن ثلاثين
قدما ؛ فابتعدت عن
حافتها حتى لا أسقط
إلى الأرض من هذا
الارتفاع العظيم .
وقطعت الزوج



شريحة من اللحم وكسرة من الخبز ، ووضعتهما فى طبق من الخشب

لأكل منهما ؛ فأشرت لها شاكرا ما تفضلت به على . ثم أخرجت من
جيبى سكينى وشوكتى ، وأكلت ؛ فكان ابتهاجهم بذلك عظيما .

ثم أمرت الزوج إحدى خدماها بإحضار قدح صغير ، وملائته ماء ؛
فلم أستطع أن أرفعه إلى فمى إلا بعد جهد شديد . ثم أشار إلى الزارع أن
أقرب من صحفة الطعام ، فليئت إشارته مسرعا فى سبرى فوق المائدة ،
فتكأدتنى - فى طريق - قطعة صغيرة من الخبز ، فسقطت على وجهى .
ولكننى - لحسن حظى - لم أصب بسوء ، فوقت على قدمى ، فرأيت
على أسارىهم أمارات العطف والإشفاق ، ودلائل الخنو . فابتسمت لهم
منحنيا عدة مرات ، شاكرا عطفهم على ، وأظهرت لهم أننى لم أصب
بسوء ، وسرت نحو السيد لألثم يده . وما دنوت من أسنر أولاده -
وهو طفل خبيث لم يعد العاشرة من عمره - حتى أمسك بساقى ، ورفعنى
فى الهواء . فامتلات نفسى رعبا وهلعا ، وأسرع أبوه فأنقذنى من يده ،
وصفعه على أذنه اليسرى - جزاء وقاحته - صفة قوية ، لو لطم بها
كوكبة من فرساننا لأماتهم جميعا !

ثم أمره أن يكف عن الأكل ويذهب بعيدا عن المائدة ، عقابا له على

عمله . ولكنني خشيت أن يضطغن علي ذلك الطفل ، وأنا أعلم أن أكثر الأطفال - في مثل هذه السن - حُمقٌ مُتهوِّرون ، وكثيراً ما تدفعهم حماقتهم وتهوُّرهم إلى إيذاء الطيور والأرانب وصغار الكلاب . فجثوتُ على رُكبتَي مستعظفاً السيِّدَ على ولده ليصفح عنه ؛ فأجاب السيِّدُ رجائي ، وصفحَ عن طفله ، وأعادته إلى مكانه من المائدة . فتقدَّمتُ من الطفل ، ولشمتُ يده ؛ فابتهجَ وسرِّيَ عن نفسه ، وأصبح صديقاً حميماً لي منذ ذلك اليوم .

٧ - مَازِقُ مُخْرِجَةٌ

وإني لأتعدَّى معهم - وأنا آمِنٌ مُطمئنٌ - إذ قفز على المائدة قِطُّ السيِّدة - المَدَلَّلُ المَحْبُوبُ - قفزةً عنيفةً ؛ فأحدثتُ حلبةً وضوضاءً أزعجتاني ومَلَأَتَا قَلْبِي خَوْفًا . وكان ذلك القِطُّ في مثلِ ضَخامةِ ثلاثة ثيران ، فإذا ماء سمعتُ لِمُوَانِهِ مِثْلَ قَصْفِ الرُّعُودِ وَجَلَجَلَتِهَا . وقد رأيتُ السيِّدةَ تَحْنُو عَلَيْهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتُقَدِّمُ إِلَيْهِ الطَّعَامَ ، وَهِيَ تُدَاعِيهِ وَتُرَبِّئُهُ ؛ فامتلات نفسي رُعباً من رُؤْيَاةِ هَذَا الْحَيْوَانِ الشَّرِيسِ عَلَى الطَّرْفِ الْآخِرِ مِنَ الْمَائِدَةِ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ خَمْسِينَ قَدَمًا . وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ مُمْسِكَةً بِقِطِّهَا حَتَّى

لَا يَنْقُضُ عَلَيَّ فَيْرُدِّرِدَنِي - كَمَا تَزْدَرِدُ قِطَّاطُنَا الْحَشْرَاتُ - وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْقِطُّ إِلَيَّ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَجْلَسَنِي السَّيِّدُ عَلَى بُعْدِ مِثْرَيْنِ وَنِصْفِ مِثْرٍ مِنَ الْقِطِّ ، لِيَرَى كَيْفَ أَصْنَعُ . وَلَقَدْ كُنْتُ وَاثِقًا كُلَّ الثَّقَةِ أَنَّ الْجُبْنَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كَثِيرٌ مَا يَقُودُ الْإِنْسَانَ إِلَى حَتْفِهِ . فَإِذَا هَرَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْوَانٍ مَفْرَسٍ - أَوْ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ - تَعَقَّهُ ذَلِكَ الْحَيْوَانُ وَطَمِعَ فِيهِ ، وَأَسْرَعَ إِلَى افْتِرَاسِهِ . فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَلْجَأَ إِلَى الصَّبْرِ ، وَأَعْتَصِمَ بِشَجَاعَتِي أَمَامَ هَذَا الْقِطِّ الْمُتَوَحَّشِ الشَّرِيسِ . فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ نَحْوَ ثَمَانِي عَشْرَةَ إِصْبَعًا - وَأَنَا رَابِطُ الْجَائِشِ - فَتَرَاجَعَ الْقِطُّ أَمَامِي تَرَاجُعَ الْخَائِفِ الْحَذِرِ .

أَمَا خَوْفِي مِنَ الْكِلَابِ قَدْ كَانَ أَقْلَ مِنْ خَوْفِي مِنَ الْقِطَّاطِ ؛ فَقَدْ دَخَلَ التَّرْفَةَ ثَلَاثَةَ كِلَابٍ أَوْ أَرْبَعَةً - فِيمَا أَذْكَرُ - وَرَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْكِلَابِ كَلْبًا كَبِيرًا جَدًّا . وَهُوَ فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ أَرْبَعَةِ أَفْيَالٍ ، وَرَأَيْتُ كَلْبًا آخَرَ مِنْ كِلَابِ الصَّيْدِ ، يَفُوقُهُ طُولًا ، وَيَقِلُّ عَنْهُ ضَخَامَةً .

وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ طَعَامِ الْغَدَاءِ حَتَّى دَخَلْتُ إِحْدَى الْمُرْضِعَاتِ ، وَهِيَ تَحْمَلُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا رَضِيعًا لَمْ تَتَجَاوَزْ سِنُهُ الْحَوْلَ . وَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ

الرَضِيعُ حَتَّى مَلَأَ الْبَيْتَ صُرَاخًا مَرَعَجًا . وَكَأَنَّمَا
حَسِبَنِي دُمِيَّةً يَلَهُو بِهَا : فَأَمَكَّتَنِي أُمُّهُ وَأَذَنَّتَنِي
إِلَيْهِ . وَمَا فَعَلَتْ حَتَّى أُمَسَّكَ بِي ذَلِكَ الرَّضِيعُ ،
وَوَضَعَ رَأْسِي فِي فِيهِ . فَصَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ
وَالرُّعْبِ : فَذُعِرَ الْوَلَدُ ، وَأَلْقَانِي مِنْ يَدِهِ ،
فَهَرَبْتُ . وَقَدْ كَانَ رَأْسِي لَا بُدَّ مَهْشَمًا لَوْ لَمْ أَقَعْ
عَلَى نَوْبِ أُمِّهِ الَّذِي فَرَشْتُهُ تَحْتِي . وَقَدْ حَاوَلَتِ الْمُرْضِعَةُ أَنْ تَتَرَضَّى
رَضِيعَهَا بِوَسَائِلِ أُخْرَى ، فَلَمْ تُفْلِحْ . فَلَمَّا عَجَزَتْ عَنْ تَسْلِيَتِهِ أَرْضَعْتَهُ ،
فَكَفَّ عَنِ الصَّبَاحِ !



وَلَمَّا انْتَهَيْنَا مِنَ الْغَدَاءِ ، تَأَهَّبَ السَّيِّدُ لِلْخُرُوجِ ، وَقَدْ أَوْصَى بِي السَّيِّدَةُ
خَيْرًا ، كَمَا فَهَمْتُ مِنْ إِشَارَاتِهِ الَّتِي أَشْعَرْتَنِي بِحِرْصِهِ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَمْرِي .
وَشَعَرْتُ بِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الرُّقَادِ - بَعْدَ أَنْ جَهَدَنِي التَّعَبُ -
وَفَطَنْتُ رَبَّةَ الدَّارِ إِلَى ذَلِكَ : فَأَرَقَدْتَنِي فِي سَرِيرِهَا ، وَغَطَّتَنِي بِمِنْدِيلٍ
أَيْضًا لَا يَقِلُّ فِي حَجْمِهِ عَنِ شِرَاعِ أَكْبَرِ سَفِينَةِ حَرَبِيَّةٍ .
وَمَا أَطْبَقْتُ جَفْنِي حَتَّى اسْتَسَلْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ . وَقَدْ رَأَيْتُ - فِي

مَنَامِي - أَنَّنِي قَدْ عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي ، وَنَعِمْتُ بِالْقُرْبِ مِنْ أُسْرَتِي ؛ فَفَرِحَ
بِعَوْدَتِي وَلَدِي وَابْنَتِي وَزَوْجِي . ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي بَعْدَ سَاعَتَيْنِ ،
فَزَادَتْ لَوْعَتِي وَحَنِينِي إِلَى وَطْنِي وَأَهْلِي ، وَوَجَدْتَنِي وَحِيدًا فِي حُجْرَةٍ فَسِيحَةٍ
يَزِيدُ عَرْضُهَا عَلَى ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ ، وَارْتِفَاعُهَا عَلَى مِائَتَيْ قَدَمٍ ، وَلَا يَقِلُّ
عَرْضُ السَّرِيرِ عَنِ ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِترًا . وَكَانَتْ رَبَّةُ الدَّارِ قَدْ أَغْلَقَتْ عَلَى
الْبَابِ ، وَذَهَبَتْ لِتُنْجِزَ أَعْمَالَ بَيْتِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَهْبِطَ إِلَى
الْأَرْضِ ، لِإِرْتِفَاعِ السَّرِيرِ عَنْهَا بِمِقْدَارِ سَبْعَةِ أمتارٍ . وَقَدْ اشْتَدَّتْ حَاجَتِي
إِلَى الْخُرُوجِ ، وَلَمْ يَكُنْ صَوْتِي - إِذَا نَادَيْتُ - بِبَالِغِ سَمْعِ سُكَّانِ
الْبَيْتِ ، لِجُودِ الْمَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ حُجْرَةِ الْمَطْبَخِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهَا تِلْكَ
الْأُسْرَةُ . عَلَى أَنَّنِي نَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي الضَّعِيفِ ، فَلَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ !

٨ - صِرَاعٌ عَنِيفٌ

وَرَأَيْتُ فَارِسَيْنِ يَتَسَلَّقَانِ سَائِرَ السَّرِيرِ ، وَقَدْ هَالَتْنِي ضَخَامَتُهُمَا وَكِبَرُ
حَجْمِهِمَا . ثُمَّ أَقْبَلَ الْفَارِسَانِ وَهُمَا يَجْرِيَانِ ، فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ وَجْهِ ؛ فَفَزِعْتُ
- مِنْ ذَلِكَ - أَشَدَّ الْفَزَعِ ، وَسَلَّتُ سِنِّي لِلدِّفَاعِ عَنِ نَفْسِي .

فأسرعَ يَعدُّو هاربًا ، وهو لا يكاد يُصدِّقُ بِالنَّجاةِ . وهكذا انجَلتِ
المعركةُ عن فوزي وانتصاري على الفارين ؛ فاستلقيتُ على ظهري
ثانيةً لِاستريحَ مِنَ العناءِ ، واستسلمتُ لِلأفكارِ .
وقد كانَ كلُّ فائرٍ منهما في مثلِ ضخامةِ أكبرِ كلبٍ عندنا . وقد
كنتُ واثقًا من شراستهما ؛ فحمدتُ اللهَ على أن أُنقذتُني من شرِّهما ،
ونصرتُني عليهما . ولو أنني خلعتُ حُسامي قبل أن أنامَ ، وواجهتُ
هذين الفارينِ وأنا أعزلٌ ، لأفترسانِي ، لا محالةً .

وبعدَ وقتٍ قليلٍ جاءتُ رَبَّةُ الدارِ . وما فتحتُ بابَ الحُجْرَةِ ،
ورأتني مُخضَّبًا بالدمِ ، حتى أسرعْتُ إلى ،
وأمسكتني بيدها ، وأدنتني من بصرِها
لتطمئنَ علي . فأشرتُ بِإصبعي مُبتسِمًا إلى
حيثُ الفائرِ الذي صرَعتهُ ، وأفهمتها أنني لم أصبُ
بسوءٍ ؛ ففرحتُ لسلامتي ، وأبدتُ إعجابها
بشجاعتي !



وقد طمِعَ الفائرانِ فيِّ لما رأياهُ من ضلالةِ جسمى - وكانا غايَةً
في القِحَّةِ - فهجما عليَّ يُحاولانِ
افتراسي .



فاجلتُ أحدَ الفارينِ بِضربةِ
حُسامٍ عنيفةٍ ؛ فشقتُ بطنه للحالِ ،
وخرَّ صريعًا على الأرضِ مُضرجًا
بدمِهِ .
وما رأى الفائرُ الآخرُ مضرعَ
صاحبه ، حتى خافَ على نفسه الهلاكَ ؛

ثم أشارتُ إليها أن تَضَعَنِي على الأرض ، فلم تَتَرَدَّدْ في تَلْبِيَةِ
 طَلْبِي . فَأَشْرَتُْ إليها بِاحْتِرَامٍ أَنِّي في حَاجَةٍ إلى الخُرُوجِ ، فَأَذِنَتْ لِي في
 ذلك . وَكَأَنَّمَا فَهَمَّتْ بِذِكَايَا أَنِّي في حَاجَةٍ إلى الخُرُوجِ لِضُرُورَةٍ حَاطِمَةٍ
 لَا يَفْضِيهَا غَيْرِي ؛ فَأَشَارَتُْ إلى البابِ الَّذِي يَقُودُنِي إلى الحَدِيقَةِ ،
 وَرَفَعَتْنِي في يَدَيَا ، وَسَارَتْ بِي قَلِيلًا ، ثُمَّ وَضَعَتْنِي على الأرضِ بَيْنَ وَرَقَتَيْنِ
 مِنْ أَوْزَاقِ البُقُولِ ، وَعَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ .

الفصل الثاني

١ - بِنْتُ الزَّارِعِ

كَانَ لِلزَّارِعِ بِنْتٌُ في التَّاسِعَةِ مِنْ عُمُرِهَا ، وَكَانَتْ - على صِغَرِ
 سِنِّهَا - حَصِيْفَةً نَادِرَةً الذِّكَاةِ . وَقَدْ عُيِنَتْ لِشَأْنِي مُدَّةَ إِقَامَتِي هُنَاكَ ،
 وَاسْتَأْذَنْتْ أُمَّهَا في أَنْ تُعِدَّ لِي - في ذَلِكَ اليَوْمِ - سَرِيرًا صَغِيرًا يُنَاسِبُ
 ضَالَّةَ جِسْمِي ؛ فَلَمْ تَرَ أَصْلَحَ مِنَ الأَرْجُوْحَةِ الَّتِي اخْتَارَتْهَا - مِنْ قَبْلُ -



لِدُمَيْتِهَا . فَهَيَّأَتْ لِي تِلْكَ الأَرْجُوْحَةَ الصَّغِيرَةَ ، وَوَضَعَتْهَا في صُنْدُوقِ صَغِيرٍ
 على مِئْزَدَةٍ صَغِيرَةٍ مُعْتَقَةٍ في وَسْطِ الحُجْرَةِ ، حَتَّى تُؤْمِنِي شَرَّ الأَمِيرَانِ .
 وَقَدْ ظَلَّتْ هَذِهِ الأَرْجُوْحَةُ سَرِيرَ نَوْمِي مُدَّةَ إِقَامَتِي في ذَلِكَ
 البَيْتِ الكَرِيمِ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الطُّفْلَةُ غَايَةً في الوَفَاءِ وَالإِخْلَاصِ وَالإِسْتِقَامَةِ ؛ فَهِيَ تَجْمَعُ

— إلى مهارتها وحذقها — خائناً وعظماً نادريين . وقد خاطت لي ستة قمصان من أثواب هذه البلاد ؛ وهي أثواب بيض ، غاية في الرقة ، وإن كانت — على الحقيقة — لا تَقِلُّ في كثافتها عن الأثواب التي يُصنع منها شراع أكبر السفن عندنا . وكانت تغسل ثيابي ، وتُعنى بِشأنِي عناية فائقة ، كما كانت تَحْرِصُ أَشَدَّ الحِرْصِ على تَلْمِيحِي لِعَتَمِهِمْ ، فلا تتركُ فرصة واحدة تَمُرُّ دون أن تُنْتَهزَها ؛ فإذا أَشْرَتْ بِأَصْبَعِي إلى شَيْءٍ بَادَرَتْ بِتَسْمِيَتِهِ لي ؛ فلم يَمُرَّ على وقتٍ قصيرٍ حتى أَصْبَحْتُ أُسْمَى ما أريدُ . وقد أَطْلَقْتُ على اسم « القزم » ، كما أَطْلَقْتُ عليها اسم « الحاضنة » ؛ لأنها كانت لي — على صِغَرِها — كالأمِّ الرَّؤومِ . وقد كان لها أكبر الفضل في تَعْلُمِي تلك اللغة . ولست أنسى عطفها عليّ ، وجميل صنعيها بي ، ما حَيَّتْ .

٢ — الضيف الثقيل

وقد ذاع في جميع أرجاء المدينة أن أحد أعيانها قد عثر — في حقل من حقوله — على حيوان صغير الجسم ، في صورة آدمي ، وهو قادر على تقليد الإنسان في جميع حرركاته وأعماله وكلامه ، وأنه يعرف كثيراً من ألفاظ لغتهم

ويسير على قدميه كما يسير الناس ، وهو دمث الأخلاق ، سهل القياد ، لطيف المعاشرة ، يلبّي من يناديه ، ويُطِيعُ ما يُؤمَرُ به ، وهو غاية في ضآلة الجسم ، ورقّة البشرة ، وبياض اللون .

وفي ذات يومٍ وفدَ أحدُ الجيران إلى بيت السيد ليتحقق صدق ما سمعه عنّي . وكان ذلك الضيف صديقاً حميماً لربّ الدار ، وهو زارع مثله ، وكان شيخاً طاعناً في السن . وما أظهر للسيد شوقه إلى رؤيتي ، حتى أحضرني إليه ، ووضعني فوق المائدة ، وأمرني بالسير عليها أمامه ؛ فلم أتردد في إطاعة أمره . ثم سلّلت حُسامي أمامه ، وأغمدته ثانية ، ولم أدخر وسعاً في تكريم الضيف ، والتودّد إليه ، وإظهار كل احترام له . وقد حَيَّتُهُ بِأُغْتِهِ ، وَرَحَّبْتُ بِهِ ، وَسَأَلْتُهُ مُتَأَدِّباً عن صِحِّته ، ولم أنس شيئاً مما أشارت عليّ به حاضنتي الصغيرة . وكانت الشيخوخة قد أضعفت بصر هذا الشيخ الطاعن في السن ؛ فأخرج منظاره لتتبين له صورتي ، فلم أتمالك أن أضحك . وكاننا أدرك أفراد الأسرة سرّاً ضحكى ، فأغربوا في الضحك جميعاً ؛ فامتعض الشيخ ، وظهرت على أساريره أمارات

الغضب ، واضطغن على . ولكنه أسرَّ ذلك في نفسه ، وعزم على الانتقام مني في الحال . فأوحى إلى ربِّ البيت أن يعرضني في الأسواق ليكسب بذلك مالا طائلا ، وأقنعه بأن جميع السكان - في مختلف المدن - سيقبلون على رؤيتي ، ولا يترددون في دفع ما يطلبه على ذلك من الأجر .

وفي صباح الغد أخبرتني الحاضنة الصغيرة بكل ما قاله الشيخ الحقود . وقد بكت من ذلك بدموع غزيرة ، وخشيت أن يصيبني أذى من بعض النظارة الذين قد يدفعهم الفضول إلى العنف بي ، وأكثرهم قساة غلاظ القلوب .

وقد أظهرت لي أمها الشديد من مقترح ذلك الشيخ ، وقالت لي : « إن أبوي قد وعداني - من قبل - بأنك ستكون لي وحدى ، ولكنهما أخلفا وعدهما حين لاحت لهما الفائدة ، كما أخلفا وعدهما - في العام الماضي - حين أعطياي حملا ، ثم باعاه لأحد القصابين بعد أن سمته ، ولاحت لهما الفائدة في بيعه . »

أما أنا ، فقد كنت - على الحقيقة - أقل المأمنها ؛ لأنني كنت أشعر

بشوق شديد إلى رؤية الناس والاختلاط بهم ، لعل أجد في ذلك وسيلة إلى الخروج من هذه البلاد ، أو تنأح لي فرصة للعودة إلى وطني .

٣ - في أسواق المدن

وبعد أيام قليلة أعدت السيد كل معدت السفر ، عملا بنصيحة صاحبه الشيخ . ثم وضعتني - في صباح اليوم التالي - في صندوق صغير ، وسار بي إلى المدينة المجاورة ، ومعه ابنته الصغيرة . وكان الصندوق ممتلئا ، وفيه عدة ثوب لتجديد الهواء حتى لا أختنق . وقد عنيت بي تلك الحاضنة الرفيعة ؛ فوضعت في أسفل الصندوق فراشا وثيرا ؛ حتى لا أتألم في أثناء الطريق . ولم يكسبها ذلك أي عناء ؛ فقد وضعت في الصندوق الفراش الذي كانت قد أعدته - من قبل - ليومي في أرجوحا دُميتها الصغيرة . ولم يكن ذلك إلا فراش الدُمية التي أحلتني الحاضنة مكانتها ، وخصتني بكل عنايتها ، بعد أن استبدلتني بالدُمية ؛ لأن الدُمية كانت - لحسن حظي - جامدة صامته ، لا تستطيع أن تجير جوابا . أما أنا ، فقد كنت - على العكس من ذلك -

دُمِيَّة نَاطِقَةٌ ، رَشِيْقَةٌ الْحَرَكَاتِ ، طَيِّبَةٌ ، مُلَبِّيَّةٌ كُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا .
 وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِيَّ أَنِّي عَانَيْتُ - فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ الْقَصِيْرَةِ الَّتِي لَمْ
 تَتَجَاوَزْ نِصْفَ سَاعَةٍ - كُلَّ أَنْوَاعِ الْآلَامِ . فَقَدْ كَانَ الْجَوَادُ يَسِيرُ
 بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَعْلُو وَيَهْبِطُ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ : فَيَرْجُوْنِي فِي الصُّنْدُوقِ رَجًّا
 غَنِيْفًا . وَكَانَ الْجَوَادُ - لِضَخَامَتِهِ - يَقْطَعُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا نَحْوَ
 أَرْبَعِينَ قَدَمًا . وَكُنْتُ فِي الصُّنْدُوقِ أَشْبَهَ بِسَفِيْنَةٍ تَعْلُو وَتَهْبِطُ وَسَطَ
 عَاصِفَةٍ هَوَّجَاءَ ، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيْرِ
 مَسَافَةً طَوِيْلَةً جِدًّا . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ نَزَلَ السَّيِّدُ عَنِ جَوَادِهِ ،
 وَتَرَجَّلَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى فُنْدُوقٍ كَبِيْرٍ ، فَكَتَرَاهُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَأَرْسَلَ
 الْمُنَادِيْنَ يَطُوفُوْنَ شَوَارِعَ الْمَدِيْنَةِ وَدُرُوبَهَا ؛ لِيُذَيِّعُوا بَيْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ
 أَحْضَرُوا حَيَوَانًا صَغِيْرًا يُمَائِلُ الْإِنْسَانَ فِي جِسْمِهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ
 وَكَلَامِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْآدَمِيَّ الضَّمِيْلَ يَنْطِقُ - كَمَا يَنْطِقُ النَّاسُ -
 وَيَقُوْمُ بِالْعَابِ عَجِيْبَةٍ فِي مَهَارَةٍ فَائِقَةٍ . فَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 لِيَتَحَقَّقُوا صِدْقَ مَا سَمِعُوا . وَرَأَى السَّيِّدُ أَنَّ يُقْلَ مِنْ زِحَامِهِمْ : فَلَمْ يَسْمَحْ
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ - لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِيْنَ رَجُلًا بِالذُّخُولِ وَالْمُشَاهَدَةِ .

وَقَدْ دَهَشَ النَّاسُ لِرُؤْيِي ، وَخَفَّتْ حَرَكَاتِي ، وَأَنَا أَسِيرُ عَلَى الْمَائِدَةِ
 جَيِّئَةً وَذَهَابًا ، وَأَجِيبُ عَنْ أَسْئَلِهِمْ بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْ لُغَتِهِمْ .
 وَكُنْتُ أَحْيِي النَّظَّارَةَ - فِي احْتِرَامٍ وَأَدَبٍ - وَفَقَّ إِرْشَادَاتِ الْحَاضِنَةِ
 الصَّغِيْرَةِ . وَقَدْ اتَّخَذْتُ مِنَ الدَّسْتَبَانِ الَّذِي أُعْطَيْتِيهِ الْحَاضِنَةُ - وَكَانَتْ
 تَضَعُهُ فِي إِصْبَعِي الْوُسْطَى حِينَ تَخِيْطُ الْمَلَابِسَ - قَدْحًا أَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ .
 وَكُنْتُ أُجَرِّدُ سِنِّي وَأُظْهِرُ أَمَامَهُمْ كُلِّ مَا تَعَلَّمْتُهُ - فِي حَدَاتِي - مِنْ
 ضُرُوبِ الْقُرُوسِيَّةِ . وَقَدْ أُعْطَيْتِي الْحَاضِنَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَعْوَادِ لِاتَّخِذَ مِنْهُ

حِرَابًا أَمْثَلُ بِهَا دَوْرَ
 الْفَارِسِ الصَّغِيْرِ . وَقَدْ
 صَعِدْتُ إِلَى الْمَائِدَةِ
 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اثْنَتَيْ
 عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَمَتَلْتُ
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ -



تِلْكَ الْأَدْوَارَ . وَمَا انْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى ارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ لِشِدَّةِ

ما لاقيت من الأعياء والمشقة

وكان النظارة شديدي الإعجاب بمهارتي ؛ فلا يخرجون حتى يخبروا من يعرفون بما رأوه من غرائب ومدهشات . وقد بلغ زحام الجمهور أشده ، ولم يعد يطبق صبراً على الانتظار ، حتى هم - عدة مرات - باقتحام الأبواب ، والدخول عنوة .

ورأى السيد - في ذلك - وسيلة ناجحة للكسب والغنى ، فخشى أن يصيبني مكروه ، أو يلحقني شيء من أذى بعض النظارة الفضوليين ، فحظر عليهم الدنو مني ، وجعل الحاضنة قريبة من مكاني ، حتى تمنع عني كل أذى ، وأجلس النظارة على مسافة بعيدة مني ، حتى لا تنالني أي يد بسوء .

على أن تلميذاً خيماً أبى عليه لومته إلا أن يقذفني بجوزة صغيرة ، لا يقل حجمها عن حجم أكبر بطيخة رأيتها . وقد صوبها الخيث إلى رأسي ، وأطلقها من يده بقوة ، ولكنها - لحسن حظي - قد أخطأتني ، ولو قد أصابت رأسي لحطمته تحطيماً . وما ألقاها حتى غضب السيد والحاضنة والنظارة على ذلك التلميذ الخيث ، وعنفوه على فعلته أشد

تعنيف ، وطرده من المكان .

ثم أعلن السيد أنه سيستأنف عمله في يوم السوق التالي . وقد ارتميت على فراشي وأنا مجهود القوى ، وقد بوح صوتي ، بعد أن ظلمت أمثلي وأتكلم ثماني ساعات كاملة .

ولما رجع السيد إلى بيته وقد عليه جيرانه - رجالاً ونساءً وأولاداً - ليتحققوا صدق ما سمعوه عني وكانت أنبأني قد ذاعت في كل مكان . ورأى السيد وفوراً ما يجنيه من المال - إذا تابع عرضي في الأسواق - فعهد بأعماله المنزلية والزراعية إلى وكيل أمين ، ثم ودع زوجته - بعد أن أعدت كل المعدات لسفر طويل - وسافر في السابع عشر من أغسطس عام ١٧٠٣ م . وبعد شهرين وصلنا إلى قصبة إمبراطورية «بربدنجاج» ، وهي على بعد ألف وخمسمائة ميل من بلده .

وقد ركب السيد جواده ، وأرذف ابنته ، فحملتني في علبة صغيرة شدتها إلى حزامها ، بعد أن بطنت داخلها ببطانة كثيفة من الجوخ . وقد لعزم السيد على أن يعرضني في أسواق المدن والضواحي والقرى الشهيرة التي يمر عليها في طريقه . وكنا نقطع في كل يوم مسافة تتراوح بين ثمانين

مِثْلًا وَمِائَةِ مِيلٍ . وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ كَثِيرًا مَا تَشْكُو إِلَى أَبِيهَا إِسْرَاعَ الْجَوَادِ فِي سِيرِهِ ، وَتَطْلُبُ إِلَيْهِ التَّمَهُّلَ وَالْهَوَادَةَ ، مُحَافِظَةً عَلَى رَاحَتِي . وَكَذَلِكَ كَانَتْ تُخْرِجُنِي مِنَ الْعُلَّةِ - بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ - لِأَسْتَنْشِقَ الْهَوَاءَ ، وَأَرَى الْبِلَادَ الَّتِي نَمَرْتُ عَلَيْهَا . وَقَدْ عَبَرْنَا سِتَّةَ نَهْيَرَاتٍ ، كَانَتْ - عَلَى صِغَرِهَا - أَعْرَاضَ وَأَعْمَقَ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ . وَكَانَ أَضْيَقُ غَدِيرٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا مِنْ نَهْرِ « التَّامِيزِ » . وَقَدْ قَضَيْنَا فِي سَفَرِنَا عِدَّةَ أَسَابِيعَ ، وَمَرَرْنَا عَلَى ثَمَانِي عَشْرَةَ مَدِينَةً وَكَثِيرٍ مِنَ الْقُرَى وَالضُّوَاخِي . وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ أَكْتُوبَرٍ وَصَلْنَا إِلَى قَصَبَةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ ، وَاسْمُهَا « أُمُّ الْقُرَى » ، وَهَمَّ يَنْعَتُونَهَا دَائِمًا بِأَنَّهَا « فَخْرُ بِلَادِ الْعَالَمِ » .

وَمَا وَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الْقَصَبَةِ حَتَّى اكْتَرَى السَّيِّدُ جَنَاحًا كَبِيرًا فِي أَحْسَنِ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ ، وَأَرْسَلَ دُعَاتَهُ يَذِيعُونَ عَلَى النَّاسِ أَنْبَاءَ الْفَرَاثِ وَالْمُدْهَشَاتِ الَّتِي سَافَجَتْهُمْ بِهَا .

وَكَانَ السَّيِّدُ يَمْرُضُنِي أَمَامَ الْجُمْهُورِ فِي فِنَاءٍ كَبِيرٍ ، طَوْلُهُ أَرْبَعِمِائَةَ قَدِيمٍ وَعَرْضُهُ ثَلَاثِمِائَةَ قَدِيمٍ ، وَفِي وَسْطِهِ مَائِدَةٌ قَطْرُهَا سِتُونَ قَدِيمًا ، يَكْتَنِفُهَا سَبَاحٌ مَتِينٌ لِيَحْوَلَ بَيْنِي وَبَيْنَ السُّقُوطِ . وَكَانَتْ أُمَّتُ دَوْرِي - فِي كُلِّ

يَوْمٍ - عَشْرَ مَرَّاتٍ ، وَالْجُمْهُورُ شَدِيدُ الدَّهْشَةِ وَالْإِعْجَابِ بِي . وَكَانَتْ حِينَئِذٍ قَدْ تَعَلَّمْتُ الْفَاطَا كَثِيرَةً مِنْ لُغَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَأَصْبَحْتُ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ مَعَ أَهْلِهَا بِسَهُولَةٍ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ دَائِمًا الْإِتْبَاهِ وَالتَّلَقُّ لِكُلِّ مَا يَطْرُقُ سَمْعِي مِنْ أَحَادِيثِهِمْ . وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ الصَّغِيرَةُ دَائِبَةً الْعِنَايَةَ بِي . فَلَا تَتْرَكُ فُرْصَةً فِي أَوْقَاتِ فَرَغِي دُونَ أَنْ تَعَلِّمَنِي فِيهَا حُرُوفَ الْهَجَاءِ وَمَا إِلَيْهَا ، حَتَّى أَصْبَحْتُ - بِفَضْلِ عِنَايَتِهَا وَتَعَهُّدِهَا - قَادِرًا عَلَى قِرَاءَةِ كُتُبِهِمْ الْأَوَّلِيَّةِ وَفَهْمِهَا . وَكَانَتْ تُدْرِّسُنِي فِي الْبَيْتِ وَفِي الْفُنْدُقِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ نَحَلْتُ فِيهِ ، وَتَعَلَّمَنِي الْقِرَاءَةَ فِي كُتَيْبٍ صَغِيرٍ يَزِيدُ حَجْمَهُ عَلَى حَجْمِ الْمُصَوِّرِ الْجُغْرَافِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَتَدَاوَلُهُ التَّلَامِيذَةُ فِي مَدَارِسِنَا ، وَتَبْدُلُ قُصَارَى جُهْدِهَا فِي تَعْلِيمِ الْحُرُوفِ وَتَرْكِيبِ الْكَلِمَاتِ ، مُتَدَرِّجَةً مِنْهَا إِلَى الْجَمَلِ الْقَصِيرِ ، فَالطَّوِيلَةِ ، كَمَا كَانَتْ تُفَهِّمُنِي مَعَانِي مَا أَقْرَأُ ؛ حَتَّى وَصَلْتُ - فِي زَمَنِ سَيْرِي - إِلَى دَرَجَةٍ جَدِيدَةٍ بِالْفِئْبَةِ وَالْإِعْجَابِ .

١ - في القصر الملكي

شَدَّ مَا أَجْهَدَنِي مَا كَابَدْتُهُ مِنْ جُهُودٍ مُضْنِيَّةٍ ، وَمَتَاعِبَ شَدِيدَةٍ : فَقَدْ كُنْتُ دَائِبَ الْعَمَلِ فِي تَمْثِيلِ أَدْوَارِي - كُلِّ يَوْمٍ - حَتَّى سَاءَتْ صِحَّتِي ، وَدَبَّ إِلَيَّ دَيْبُ الضَّعْفِ ، وَهَزِلَ جِسْمِي . وَكَانَ السَّيِّدُ شَرِيهَا طَمَاعًا يُغْرِبُهُ الْكَسْبُ ، وَيُنْسِيهِ مَا يَجْنِيهِ مِنَ الْأَرْبَاحِ الطَّائِلَةِ كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْعَطْفِ وَالْوَاجِبِ الْإِنْسَانِيِّ . وَلَقَدْ فَقَدْتُ شَهِيَّةَ الْأَكْلِ فَقِدَانًا تَامًا ، وَأَصْبَحْتُ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ . وَرَأَى السَّيِّدُ أَنِّي مُشْرِفٌ عَلَى التَّلَفِ ، فَجَلَسَ يُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ يَسْلُكُهَا لِلْإِنْتِفَاعِ بِي مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ . وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي تَفْكِيرِهِ إِذْ جَاءَهُ أَحَدُ الْأَمْرَاءِ يَسْتَدْعِيهِ لِلذَّهَابِ مَعِي ، مِنْ فَوْرِهِ ، إِلَى الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ لِتَسْلِيَةِ الْمَلِكَةِ وَحَاشِيَّتِهَا . وَكَانَتْ أَنَا فِي قَدْ ذَاعَتْ فِي أَرْجَاءِ الْمَمْلَكَةِ كُلِّهَا ، وَقَدْ رَأَيْتِي بَعْضُ سَيِّدَاتِ الْحَاشِيَّةِ فَأَعْجِبَنِي بِي إِعْجَابًا شَدِيدًا ، وَقَصَصَنَ عَلَيَّ جَلَالََةَ الْمَلِكَةِ مَا رَأَيْتُهُ مِنَ الْمُدْهَشَاتِ ،

وَوَصَفَنَ لَهَا ضَالَاتَةَ جِسْمِي ، وَحُسْنَ أَدْبِي ، وَدَمَائَةَ خُلُقِي ، وَذَكَائِي النَّادِرَ : فَلَمْ تُطِقْ جَلَالَتُهَا صَبْرًا ، وَأَرْسَلَتْ - مِنْ فَوْرِهَا - تَسْتَدْعِينِي إِلَيْهَا لِتَتَحَقَّقَ صِدْقَ مَا سَمِعْتَهُ عَنِّي مِنْ أَنْبَاءٍ مُعْجِبَةٍ . وَقَدْ ابْتَهَجَتْ جَرِيَّةُ الْمَلِكَةِ وَحَاشِيَّتُهَا ابْتِهَاجًا عَظِيمًا ، حِينَ تَحَقَّقَتْ صِدْقَ مَا حَدَّثُوها بِهِ ، وَأَظْهَرَتْ عَظْفَهَا عَلَيَّ وَإِعْجَابَهَا بِي :



فَجَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتِي ضَارِعًا إِلَيْهَا أَنْ تُشْرِفَنِي

بِلَثْمِ قَدَمَيْهَا الْمَلَكِيَّةِ : فَقَدَّمَتْ إِلَيَّ خِنْصَرَهَا - مَتَلَطِّفَةً بِاسْمَةٍ - فَأَمْسَكْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ ، وَلَثَمْتُ بَنَانَهَا شَاكِرًا .

وَقَدْ وَجَّهَتْ إِلَيَّ أَسْئَلَةً عَامَّةً عَنِ بِلَادِي ، فَأَجَبْتُ عَنْهَا إِجَابَةً مُوجِزَةً وَاضِحَةً ، عَلَيَّ قَدْرٍ مَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُعَبِّرَ بِلُغَتِهَا . ثُمَّ قَالَتْ لِي مَبْتَسِمَةً :

« أَيَسُرُّكَ أَنْ تَعِيشَ مَعَنَا فِي هَذَا الْقَصْرِ ؟ »

فَانْحَنَيْتُ أَمَامَهَا شَاكِرًا ، وَأَجَبْتُهَا ضَارِعًا :

« لَسْتُ - يَا مَوْلَاتِي - إِلَّا عَبْدًا رَقِيقًا لِهَذَا السَّيِّدِ ، فَهُوَ مَالِكٌ رِيقِي ،

٤٠
يَتَصَرَّفُ فِي أَمْرِي كَيْفَ يَشَاءُ . أَمَا أَنَا ، فَلَوْ كَانَ أَمْرِي بِيَدِي لَرَأَيْتُ السَّعَادَةَ
كُلَّهَا فِي أَنْ أَهَبَ جَلَالَتِكَ الْمُلُوكِيَّةَ حَيَاتِي ، وَأَنْ أَقْضَرَ خِدْمَتِي عَلَى
الْقَضْرِ الْكَرِيمِ !

فَالْتَفَتَتْ إِلَى السَّيِّدِ تَسْأَلُهُ :

« هَلْ تَقْبَلُ أَنْ تَبِيعَنِيه ؟ »

وَلَمْ يَكُنْ أَشْهَى إِلَى نَفْسِهِ مِنْ هَذَا ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي رُوعِهِ أَنْ هَالِكٌ - قَبْلَ
أَنْ أُتِمَّ الشَّهْرُ - فَرَأَى الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلْكَسْبِ ، وَعَرَضَ عَلَى جَلَالَتِهَا أَنْ
تَشْتَرِيَنِي بِأَلْفِ دِينَارٍ ، فَفَقَدْتُهُ الثَّمَنَ مِنْ فَوْرِهَا . فَقُلْتُ لِجَلَالَتِهَا ضَارِعًا :
« مَا أَجْدَرُ مَوْلَاتِي أَنْ تُضَيَّفَ - إِلَى هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي طَوَّقَتْ بِهِ جِيدَ
عَبْدِهَا - فَضْلًا آخَرَ ، فَتَقْبَلَ صَدِيقِي الْحَاضِنَةَ الصَّغِيرَةَ - الَّتِي عَطَفْتُ
عَلَى وَعِينَيْتُ بِأَمْرِي - خَادِمَةً لِجَلَالَتِهَا ، لِتَكُونَ رَفِيقَةً لِي ؛ فَقَدْ أَقَمْتَنِي الْيَوْمَ
بِأَنَّهَا نِعْمَ الْمُرْشِدَةُ الْأَمِينَةُ . »

فَأَجَابَتْنِي جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ إِلَى طَلْبَتِي فِي الْحَالِ ، وَفَرِحَ الزَّارِعُ بِهَذَا
الْفَوْزِ ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ سُرُورًا وَغِبْطَةً ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ابْنَتُهُ فِي حَاشِيَةِ الْمَلِكَةِ ،
كَمَا تَطَلَّهَتْ أُسَارِيرُ الْحَاضِنَةِ بِشْرًا وَسُرُورًا .

ثُمَّ ذَهَبَ السَّيِّدُ إِلَى سَبِيلِهِ ، بَعْدَ أَنْ حَيَّانِي مَبْتَسِمًا ، وَقَالَ لِي :
« أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ ، وَأُهْنِّئُكَ بِهَذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، وَأَتَمِّسُ لَكَ السَّعَادَةَ
الَّتَامَّةَ ! »

فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ تَحِيَّتهَ - فِي امْتِعَاضٍ وَفُتُورٍ - وَشَكَرْتُ لَهُ أَمَانِيَّةً لِي .

٢ - خُطْبَةُ « جَلْفَر »

وَلَمْ يَخَفْ عَلَى جَلَالَةِ الْمَلِكَةِ مَا بَدَأَ عَلَى أُسَارِيرِي مِنْ أَمَارَاتِ الْإِمْتِعَاضِ
وَالْفُتُورِ - حِينَ حَيَّيْتُ ذَلِكَ السَّيِّدَ - فَسَأَلْتَنِي عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ فَلَمْ
أَكْتُمْهَا شَيْئًا مِنْ حَقِيقَةِ مَا حَدَّثَ ، وَقَصَّصْتُ عَلَيْهَا قِصَّتِي كُلَّهَا ، ثُمَّ
خَتَمْتُهَا بِقَوْلِي :

« إِنْ كُلُّ مَا أَشْكُرُهُ - لِهَذَا السَّيِّدِ - أَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنِ قَتْلِ ذَلِكَ الْحَيَّوَانِ
الصَّغِيرِ الْبَرِيِّ الَّذِي رَأَى مُصَادَفَةً فِي حَقْلِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ فِي قُدْرَتِهِ - حِينَئِذٍ -
أَنْ يَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ سَحَقًا ، وَإِنِّي لَنْ أَنْبِي لَهُ هَذَا الصَّنِيعَ الْمَشْكُورَ .
وَأَحْسَبُنِي قَدْ رَدَدْتُهُ إِلَيْهِ مِضَاعِفًا ؛ فَقَدْ جَنَى بِي أَرْبَاحًا طَائِلَةً . لَمْ يَكُنْ
يَخْلُمُ بِهَا طَوْلَ عَمْرِهِ . وَكَانَتْ خَاتِمَتِي مَعَهُ أَنْ بَاعَنِي لِجَلَالَتِكَ بِأَلْفِ دِينَارٍ . »

على أنى أنتم منه جشعه وجريه وراء المال ، دون أن تأخذه في أمرى
رحمة أو شفقة ؛ فقد أفسد صحتي ، وأنكر صحتي في سبيل المال ، وكاد
يهلكنى لولا لطف الله بى ؛ إذ قبض لى جلالتك ، فأثقت حياتى بعد أن
أشرفت على التلف . ولولا أنه كان شديد الثقة بأن حيينى وشيك ، لما
باعنى لجلالتك بهذا الثمن القليل . . .

على أنى لن أخشى شيئاً بعد اليوم ، فحسبى أنى أصبحت فى كنف
ملكه عظيمه مثلك ، تعدد - بحق - آية الكرم ، وبهجة الدنيا ، وفخر
العالم . وقد بدأت أحس - منذ هذه اللحظة - أن زمن النخس والشقاء
قد ولى ، وأعقبه زمن السعادة والرخاء . وإنى لأشعر أن قواى تتجدد
بفضل هذه الرعاية السامية . »

ولقد أقيمت هذه الخطبة أمام جلالتها - وأنا واثق من أنى وقعت فى
كثير من الغلط النحوى ، والخطأ اللغوى - ولكن جلالتها أدركت حدائته
عهدى بتلك اللغة ، فتجاوزت عن كل ما وقعت فيه من هفوات ، وأعجبت

بذكائى ، ودهشت لما سمعته منى . ولم يكن يدور بخليها أن تجد هذا
العقل والذكاء فى مثل هذا الحيوان الصغير الذى يخاطبها .

٣ - بين يدي الملك



ومضت بى - من
فورها - إلى جناح جلالة
الملك ، وكان قد عاد إلى
القصر . وما استقر فى
حجرتة الخاصة حتى
جاءته الملكة ، فحيتته
- متلطفة - فرداً عليها
التحية بأبتسام . وكان
ملك هذه البلاد مثالاً
للجد والحزم والنشاط .
وما ألقى على نظرة عاجلة
حتى قال للملكة ، ولم
يكن قد رأى وجهى :

« ماذا أعجبك من هذه الحشرة ؟ »

فوضعتني تلك الملكة الحصيصة على مخبرة جلالته . وطلبت إلى أن أُجيبَ جلالته الملك عن سؤاله ، وأخبره باسمي .

فأوجزت لجلالته خبري . ولم تستطع الحاضنة أن تبقى بعيدة عني ؛ فاستأذنت في الدخول ، ثم قصت على جلالته كيف وجدني أبوها في حقله ، وسردت قصتي كلها . وكان ذلك الملك أعلم رجل رأيتُه في مملكته ، وقد توفر على درس الفلسفة وتخصص العلوم الرياضيات فلما رأى وجهي ومشييتي ، خيل إليه أنني ربما كنت آلة صناعية كالآلة التي تُديرُ بنفسها سفود الشواء ، أو كالساعة التي استطاع أن يخترعها فتى ماهر . ولكنه بعد أن حدثني وتبين نبرات صوتي ، وحسن جوابي ، لم يستطع أن يكتم دهشته وإعجابَه .

٤ - أقوال العلماء

فأمر الملك - من فوره - باستدعاء ثلاثة من أساطين العلماء ، كانوا - حينئذ - ضيوفاً في القصر الملكي ، وكانوا يقضون فيه أسبوعاً من كل

عام ، تبعاً لتقاليد هذه البلاد . وبعد أن أنعموا النظر وأتمعنوا الفكر ، وأطالوا التأمل والفحص ، تبأينت آراؤهم في أمري . ثم أجمعوا رأيهم - بعد مناقشة طويلة - على أنني فلتة من فلتات الطبيعة . لأنني لم أُخلق على حسب القوانين الطبيعية المألوفة ، ولأن الطبيعة قد سلبتني - فيما زعموا - كل مؤهلات الحياة وأدوات الدفاع عن نفسي ، وحرمتني القوة والنشاط ؛ فليس في قدرتي أن أتسلق شجرة من أشجارهم ، أو أخضر الأرض ، فأتخذ فيها جحراً آوى إليه كما تفعل الأراب مثلاً . وقد فحصوا عن أسناني فحوصاً دقيقاً ، فاقتنعوا بأنني حيوان مفترس من أكلة اللحوم . وذهب أحدهم إلى أنني جنين لم أكتمل في بطن أمي ، ولكن رفيقه أنكرا عليه هذا

الزعم ، لأن أعضائي كلها

كاملة في نوعها - برغم

ضآلتها - ولأنني قد عشت

عدة سنين حتى اكتملت

رُجولتي والتحيت . وقد استطاعوا أن يروا شعر ليحتي بمجهرٍ لدقته . ولم يستطيعوا أن يعتبروني قرماً ؛ لأن نديم الملك - وهو أصغر قرم وجد



في تلك المملكة - كان يرُبِّي طوله على ثلاثين قدمًا .

وطالت مناقشتهم ، واشتدَّ جدُّهم ، ثم أَطْبَقُوا - بعد ذلك - على أني لستُ إِلَّا مخلوقًا شاذًّا من النَّوعِ الذي يُطْلَقُ عليه الفلاسفةُ اسمَ «مُدَاعِبَاتِ الطَّيِّعَةِ» أو «فَلَتَاتِ الزَّمَنِ» . وهو تعبيرٌ يُلْجَأُ إليه أساتيدُ الفلاسفةِ الحديثَةِ الذين يُعْجِزُهم تَفَهُمُ أسرارِ الكونِ ، ودقائقِ الغيبِ ، وغرائبِ الطَّيِّعَةِ ؛ فلا يَجِدُونَ وسيلةً لِحَلِّ كلِّ غامِضٍ إِلَّا إذا التَّجَسَّوْا إلى هذه النَّظَرِيَّةِ السَّهْلَةِ !

...

وما انتَهَوْا من قرارِمِ هذا ، حتَّى انْفَتَحَتْ إلى المَلِكِ ، وقلتُ لِجَلالَتِهِ : « إِنِّي آتٍ من بلادٍ تَحْوِي عِدَّةَ مِلايِينٍ من الأنايِيِّ - ذُكُورًا وإناثًا - في مِثْلِ حَجْمِي ، وإنَّ أشجارَ تلكِ البلادِ وحيوانها ونباتها ومساكنها تُناسِبُ أحجامنا الصَّغِيرَةَ . وثُمَّةٌ تتوافرُ لي أسبابُ الدِّفاعِ عن نَفْسِي ، ويسهلُ عليَّ أنْ أُحْصِلَ على قُوَّتِي وحاجاتي ، كما تَحْصُلُونَ عليه في بلادِكُمُ المُناسِبَةِ لأحجامِكُمُ الهائلةِ . »

وما سَمِعَ الفلاسفةُ هذا الجوابَ ، حتَّى علَّتْ شِفاهَهُمُ ابْتِساماتُ

السُّخْرِيَّةِ وَالإزْدِرَاءِ ، وقالوا لي مُتَهَكِّمِينَ :

« لقد أَحْسَنَ الزَّارِعُ تَلْقِينَكَ هذه الدُّروسَ ! »

وكان المَلِكُ - كما قلتُ - ذَكِيَّ القلبِ ، واسعَ الإِطِّلاعِ ؛ فلم يَسْتَعِدْ ما قُلْتُهُ . فَصَرَفَ عُلَماءَهُ ، وأمرَ بِاسْتِدْعاءِ الزَّارِعِ - ولم يكن قد غادرَ المَدِينَةَ لِحُسْنِ الحِظِّ - وسأله جلالَتُهُ على انفرادٍ ، ثم واجهَهُ بي وبابنَتِهِ الصَّغِيرَةِ ؛ فظهرَ له صدقُ ما قُلْتُهُ له . فَصَرَفَ الزَّارِعَ ، وَأَوْصَى بي بِالْحاضِنَةِ خَيْرًا ، وتركَ لها العِنايةَ بِأمرِي ، بعد أن رأى عَظَمَتِها عليَّ وتعلُّقَها بي .

٥ - عِنايةُ المَلِكِ

وقد اسْتَدْعَتِ المَلِكُ نِجارَها الخاصَّ - وكان مشهورًا بِصُنْعِ دَقائِقِ التِّجارَةِ - وأمرتُهُ بِعَمَلِ عُلْبَةٍ صَغِيرَةٍ تَصْلُحُ مَكانًا لِتَومِي وَفوقِ النَّمُودِجِ الذي قَدَمْتُهُ أَنَا وَالْحاضِنَةُ . وكان نِجارًا ماهرًا دَقيقًا ذَكِيًّا ؛ فلم تَمُرَّ عليه ثَلَاثَةُ أَسابيعَ حتَّى أتمَّ صَنعَ العُلْبَةِ . وكانت مِساحتُها سِتَّ عَشْرَةَ قَدَمًا مَرَبَعَةً ، وارْتِفاعُها اثنتي عَشْرَةَ قَدَمًا ، ولها بابٌ ونوافذٌ ، وهي تَحْوِي حَجَرَتَيْنِ . وبعدَ أيامٍ قليلةٍ جاءَوني بِكُرْسِيِّينِ صَغِيرينِ من مادَّةٍ تُشَبِّهُ العاجَ ،

وأحضروا إلى مائدتين ، وخزانة ملابس صنعها عاملٌ مُتَخَصِّصٌ لِصِنْعِ
دَقَاتِنِ الطَّرْفِ الفَنِّيَّةِ . وأعدت لي جلالةُ المَلِكَةِ أرقَّ الأثوابِ
الحريريَّةِ ، لِأَخْتَارِ مِنْهَا مَا يُبَلِّغُنِي .

وكانت جلالتها تأنسُ إليَّ ، وتطربُ لِجَدِيثِي ، ولا تصبرُ على مُفَارَقَتِي ،
ولا تأكلُ إلا إذا أكلتُ بِجَانِبِهَا . وقد أعدت لي مائدةً صغيرةً أضعها على
المائدةِ الكبيرةِ ، وأحضرتُ إلي جانبها كرسيًا صغيرًا أجلسُ عليه . وكانتِ
الحاضنةُ تجلسُ دائمًا بالقربِ مِنِّي لِتَلْبِيَةِ كُلِّ مَا أَطْلُبُ ، ولا تكادُ تقدرُ
عَنِ العِنَايَةِ بِرُحْنَةٍ واحدةً .

٦ - حوارُ المَلِكِ

وفي ذاتِ يومٍ كان المَلِكُ يَتَغَدَّى معنا ، فظلَّ يُحَادِثُنِي ، وهو مُعْجَبٌ
بِجَدِيثِي . وقد سألتني عن عاداتِ بلادِي ، وأخلاقِ أهلِهَا ، ودينيهم وقوانينهم ،
وحكومتهم وآدابِ لغَتِهِمْ ؛ فَأَجَبْتُهُ عن كُلِّ مَا سأل بِقَدْرِ مَا سَاعَفْتَنِي اللُّغَةُ .
وكان المَلِكُ طُلْعَةً ، دَائِبَ البَحْثِ ، دَقِيقَ المُسْلِحَةِ ، قَوِيَّ الحُجَّةِ ؛
فظلَّ يفكرُ في شَأْنِي وأقوالِي مَلِيًّا . وقد اشتدَّ عَجْبُهُ حينَ علمَ أَنَّ في بلادِنَا

أحزابًا مُتَنافِرَةً مُتَنَاحِرَةً ، وأنَّ لكلِّ حِزْبٍ مُؤَيِّدِينَ ومعارضِينَ . فالتفتُ
المَلِكُ إلي وزيرِهِ ، وكان واقفًا خلفَهُ وفي يَدِهِ عصًا بيضاءً ، كأنَّهَا
إِطْوَالُهَا - ساريةُ سفينةِ شِراعِيَّةٍ كبيرةٍ . وقال له المَلِكُ :

« أليسَ مِنَ المُوَلِّمِ المَخْزِي أن تكونَ العَظْمَةُ الإنسانيَّةُ تافهةً إلى هذا
الحدِّ ؟ وأيُّ قِيَمَةٍ لِلإنسانِ في هذهِ الدُّنْيَا إذا شارَكَتُهُ تلكَ الحشراتُ
الصغيرةُ في كلِّ خصائصِهِ ومزايَاهِ ؟ وأيُّ فضلٍ لنا مادامتْ هذهِ الحشراتُ
تُمَثِّلُنَا في كُلِّ شَيْءٍ : لهم أطماعٌ وأحزابٌ ، ومدراتٌ وزيناتٌ ، وأفراحٌ
وأتراحٌ ، يصنعون من فضلاتِ الخِرَقِ أثوابًا يَرْتَدُّونَهَا ، ويأوون إلى قُبوبِ
يُسْمُونَهَا منازلَ وقُصورًا ، ويتخذون لهم أتباعًا وخدمًا ، ويُلَقِّبونَ أنفُسَهُمْ
بِشَتَّى الألقابِ والنُّعُوتِ ، ويكونُ لهم - كما لنا - في هذهِ الدُّنْيَا آرابٌ
ومشاعِلٌ وأمانِيٌّ ، ويحبُّون ويكرهون ، ويلجئون إلى ضروبِ الخِدَاعِ
والمَكْرِ والخُصُومَةِ : فلا نمتازُ عنهم في شَيْءٍ من مزايانا ونقائصِنَا على السَّوَاءِ ! »
هكذا شاءَ جلالَةُ المَلِكِ أن يُحَقِّقَ أبناءَ جِنْسِي ، وأن يُزَيِّرَ بِفنونِهِمْ
وآدابِهِمْ وفلسفتِهِمْ ، وأن تدفعَهُ فلسفتُهُ إلى النُصِّ مِنْهُمْ ، وامْتِهانِ شَأْنِهِمْ
لِضالَّةِ أجسامِهِمْ !

بالنضب ، وأرسلت - من فورها - تستدعي ذلك القزم . فلما حضر
أمرت بضربه بالسياط ؛ فظلوا يضربونه ضرباً موجعاً ، حتى شفي غليل منه ،
وأدركت - بذلك الإيذاء - ثأري الذي كنت عاجزاً عن الأخذ به !

٨ - في أنبوب عظمة

على أن هذا الحادث المشؤم - حادث الفرق - قد انتهى لحسن
حظي بسلام ، فلم أخسر فيه إلا ثوبي الجديد .

وقد طردت الملكة هذا القزم الشرير من خدمتها ، وتركته لإحدى
وصيفاتها ؛ فاسترخت من مضايقته وخيبته منذ ذلك اليوم .

ولم تكن هذه أول مرة أساء إلى فيها ذلك القزم ، فقد طالما ضايقني
بإساءاته المتكررة . ولست أنسى ما فعله ذات يوم ، إذ ترهبني بي حتى
انتهى الملك من غدائه ، ثم غافلني ذلك الخبيث وأمسك بي ، فضم
ساقاً بإصبعيه ، وأدخلني في أنبوب عظمة - بعد أن استل نخاعها -
ففضت فيها إلى رقتي .

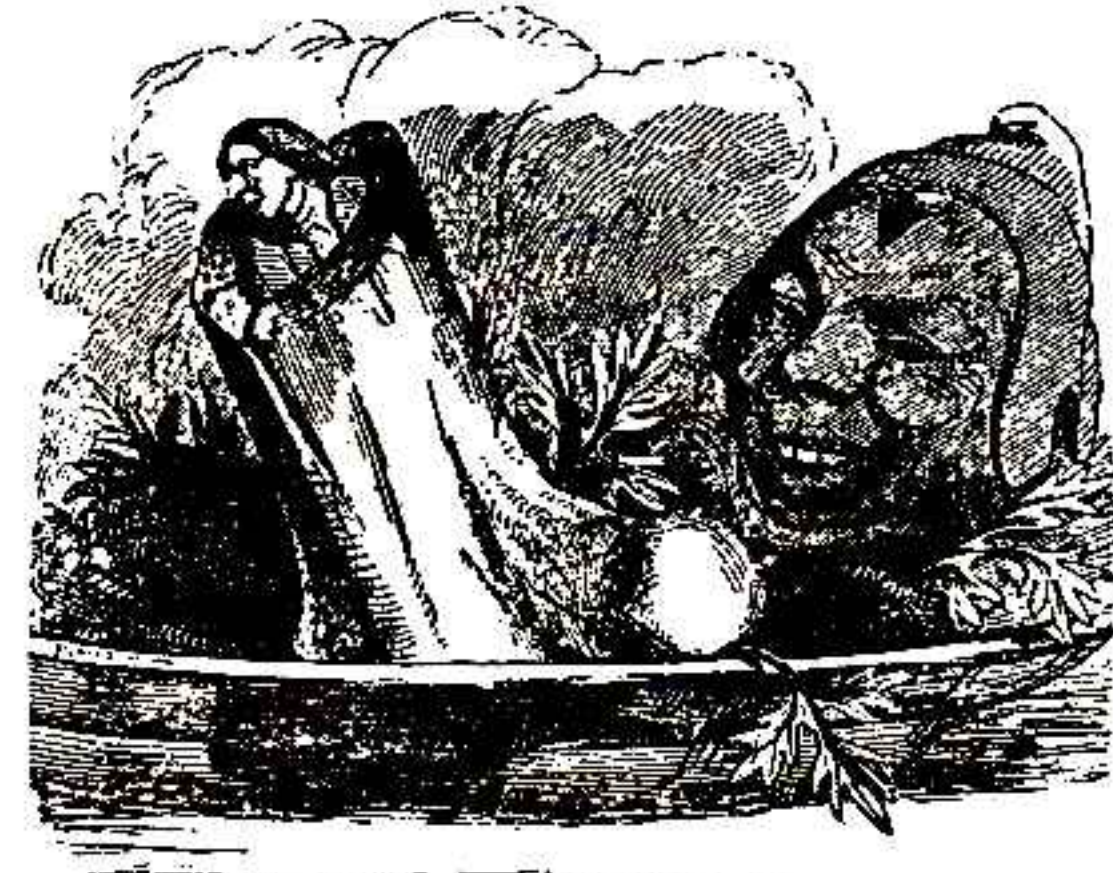
ثم وضع تلك العظمة على المائدة ، وذهب إلى سبيله ، ولبثت في ذلك

٧ - القزم الخبيث

صغالي الزمن ، ولم يُعكر علي هذا الصفاء إلا قزم خبيث قد اختارته
الملكة لمُنادمتها ، وهو أصغرُ قامة من كل مخلوق في هذه البلاد . وما
رأى ذلك القزم الخبيث أن في الدنيا إنساناً أضال منه ، حتى تملكه الزهو
والغرور والخيال ؛ فظلل يعبتُ بي - كلما رآني - ولا يترك فرصة
يلقاني فيها دون أن يتهم بي ، ويسخر مني ، حتى عكر علي كل صفوي .
ولم أكن أجد وسيلة إلى الانتقام منه إلا أن أدعوه بقلب « الشقيق » !

وما أنسَ لا أنسَ يوماً مشؤماً مرَّ بي مع هذا القزم الخبيث ونحن
تغدي . ولم أكن أفكر في شيء حينئذ ، فرأى ذلك القزم أن الفرصة
ساحية للعبث بي ؛ فأمسكني من وسطى ، ورفني بيده ، ثم ألقى بي في صحفة
مملوءة لبناً ، وفرَّ هارباً ؛ فغرقت في اللبن إلى أذني ، ولولا أنني أُخسِنُ
السباحة لفرقت فيها وكنت من الهالكين . وكانت العاضنة الصغيرة
حينئذ في آخر القاعة - ليحسن حظي - فأسرعت إلي وأخذتني من الفرق .
وما علمت الملكة بهذا الحادث المفزع حتى ذهلت ، وامتلات نفسها

الأُنُوبِ بَضْعَ دَقَائِقَ - وَأَنَا فِي أُخْرَجِ مَأْرِقٍ - وَخَجِلْتُ مِنْ حَقَارَتِي ،
فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَصِيحَ حَتَّى لَا أَنْبَهُ مَنْ فِي الْبَيْتِ إِلَى مَكَانِي الْمُرِّي .



وَقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ
حَظِّي أَنْ الْمُلُوكَ
لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَهُمْ
وَهُوَ سَاخِنٌ شَدِيدٌ
الْحَرَارَةِ ؛ فَلَمْ تَحْتَرِقْ
سَاقِي .

وَمَا فَطَنَ الْحَاضِرُونَ

إِلَى مَكَانِي حَتَّى أَنْعَرَقُوا فِي الضَّحِكِ ، ثُمَّ أَخْرَجُونِي مِنْ أُنُوبِ تِلْكَ
الْعِظَمَةِ دُونَ أَنْ يَمَسَّنِي سُوءٌ . وَقَدْ هَمُّوا بِمُعَاقَبَةِ ذَلِكَ الْقَرْمِ عَلَى
إِسَاءَتِهِ ؛ فَتَشَفَّتْ فِيهِ - إِبْقَاءَ عَلَيْهِ ، وَاسْتِصْفَاءَ لِنَفْسِهِ - حَتَّى عَفَوْا عَنْهُ .

٩ - مُكَافَحَةُ الْحَشْرَاتِ

وَكَانَتِ الْمَلِكَةُ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ - تَهْزَأُ بِي ، وَتَضْحَكُ مِنِّي .

قَالِي ، وَتَسْخَرُ مِنْ جُبْنِي ، وَكَثِيرًا مَا سَأَلْتَنِي مُتَعَجِّبَةً :

« تَرَى هَلْ يُعَاثِلُكَ أَبْنَاءُ جِلْدَتِكَ فِي خَوْفِكَ وَجُبْنِكَ ؟ وَهَلْ
يَنْزِعُونَ مِنْ طِينِ الذُّبَابِ ، وَلَذَعَاتِهِ الْخَفِيفَةِ كَمَا تَنْزِعُ أَنْتَ ؟ »

وَلَا أَكْتُمُ
الْقَارِيَّ أَنَّ ذُبَابَ هَذِهِ
الْبِلَادِ مَا كَانَ يَدْعُنِي
لِحِظَّةٍ فِي رَاحَةٍ
وَاطْمِئْنَانٍ . فَهُوَ
- لِسُوءِ حَظِّي -

فِي حَجْمِ الْقُبْرَةِ فِي
بِلَادِنَا ، وَكَانَ يَهَافُتُ
عَلَى طَمَاحِي ، وَيُفْزِعُنِي

طِينُهُ ، فَلَا يَهْنَأُ لِي طَعَامٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ . وَرُبَّمَا لَدَعَنِي فِي أَنْفِي لَذَعَةَ
مُوجِعَةً . وَكَانَتْ لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ ، فَكُنْتُ أَحْسَنُ رِعْشَةَ خَوْفٍ
وَفَزَعٍ كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنِّي تِلْكَ الْحَشْرَاتُ الْمُؤْذِيَةُ .



وكانما فهم ذلك القزم الخيث خوفاً من تلك الحشرات ، فكان
يحلوه أن يتهر كل فرصة سانحة ، ليخيفني بها ، ويضحك
الأميرات مني ؛ فتملاً قبضةً يده بجملته من الذباب ، ثم يطلقها علي .
ولم يكن لي من حيلة في دفع هذا البلاء إلا أن ألبأ إلى مديتي ،
فأحارب ذلك الذباب الكبير ، وأقطع جسمه وأججته إرباً إرباً !

وكانت الأميرات يعجبن بهذه اللباقة التي امتزت بها في صيد
الحشرات . ولست أنسى ما حدث لي - ذا صباح - فقد وضعت الحاضنة
عُلبتي على النافذة - وأنا في داخلها - لأستنشق الهواء النقي ، وما فتحت
إحدى نافذتي وجلت إلى مائدتي لآكل فطوري - وكان قطعة من
الفطير - حتى أقبلت العاسيت والزناير ، ودخلت حجرتي ، وملأت
أنفها بطينها المفرغ ، وظلت تنهات على طعامي وتنتهيه انتهاباً .
وطار بعضها حول رأسي ، فتشجعت ، وقمت أطاردُها في الهواء ، فقتلت منها
أربعة ، وهربت بقيتها . فلما انتصرت عليها . أعقلت النافذة .

وقد كان البعوب في حخم الحمل ، وكان طول حخته اللاسعة إصبعاً ،
وقد احتفظت ببعضها ليكون عندي أثراً من ذكريات هذه البلاد .

الفصل الرابع

١ - برُبدِ نجاج

لعل القاري قد اشتاق إلى تعرف هذه المملكة وأوصافها ، كما عرف
- من قبل - أوصاف إمبراطورية « ليليوت » . وليس في قدرتي أن
أصف هذه المملكة الفسيحة الأزجاء ، المترامية الأطراف ، وصفاً
مُسهباً : فلا جتزى بوصفها وصفاً عاجلاً ، على قدر ما أعرفه منها . ولا
أكتم القاري أنني أحببت هذه البلاد ، وفتنت بها أشد الفتنة .

تقع هذه المملكة
في رقعة فسيحة من
الكرة الأرضية ، طولها



ثلاثة آلاف ميل ، وعرضها ألفان وخمسمائة ميل . ولست أشك في أن
علماء الجغرافية واهمون إذ يُقررون - جازمين - أن ليس بين « اليابان »
و « كلفورنيا » إلا بحر . ولقد طالما دار بخليدي أن في تلك الأنحاء قارة

كبيرة . ولو ترك الأمر إلى لاَوْصِيَتْ بِتَصْوِيبِ المَصَوِّرَاتِ الجُغْرَاقِيَّةِ ،
وتلاني هذا النقص فيها ، وضم هذه البلاد الفسيحة إلى الأقسام الشماليَّة
الغربية في « أمريكا » . وإني مُستَعِدٌّ لمعاونتهم في ذلك - إذا شاءوا -
والإفشاء إليهم بما أعلمه عن هذه البلاد .

٢ - وَصْفُ « بَرُبْدِنَجَاغِ »

ولست هذه المملكة إلا شبه جزيرة كبيرة ، تنتهي شمالاً بسلسلة
جبال يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين ميلاً تقريباً ، ولا سبيل إلى الدنو منها
لكثرة ما في ذراها من البراكين . وليس في علماء الجغرافية عالم واحد
يعرف ما وراء هذه الجبال الشامخة من السكان ، وهل هي مأهولة بأبناء
آدم أو غير مأهولة ؟

وليس في هذه المملكة - على سعتها - مرفأً واحدٌ ترسو عليه
السفن . وإنك لتجد - عند مصاب الأنهار كلها - كثيراً من الصخور
المرتفعة الوعرة ، وترى البحر في تلك الجهات كثير الإضطراب ، حتى
ليتعدر على أي إنسان أو أية سفينة الاقتراب منها . وقد كان هذا سبباً

في عزلة هذه البلاد عن العالم ، وانقطاع المعاملات التجارية بين أهلها
وبين بقية سكان الدنيا .

٣ - سَمَكُ « بَرُبْدِنَجَاغِ »

وفي هذه البلاد أنهار كبيرة غاصة بأفخر أنواع السمك . وقلما ترى
أحدًا في تلك البلاد يصيد السمك من المحيط ، لأنه لا يزيد - في
حجمه - عن السمك الذي نراه في بلادنا ونستخرجُه من البحار ، وهو - في
نظرم - سمك صغير جدًا لا يكافي ما يُبذَلُ في صيده من عناء .

وكانما خصت الطبيعة سكان هذه البلاد بكل ما يناسب ضخامتهم ؛
فقد وهبهم الله - سبحانه - أرضاً فسيحة الأرجاء ، وأشجاراً سامقة
العلو بالغة الارتفاع ، وحيوانات غاية في ضخامة الأجسام . فكان كل
شيء في هذه البلاد يناسب - في ضخامته وكبر حجمه - سكانها .

وقد رأيت - ذات يوم - حوتاً عظيماً قد اصطاده أحد الصيادين ،
فلم يستطع عملاق - من أهل هذه البلاد - أن يحمله على كتفيه لضخامته
إلا بجهد شديد . وقد رأيت كثيراً من هذه الحيتان على مائدة الملك .

وفي هذه المملكة إحدى وخمسون مدينة، ومائة ضاحية نكسنتها
الأشوار، وعدد لا يحصى من القرى الصغيرة والمحلات، وكلها
أهلة بالسكان.

٤ - قصبة « برُبدنجاج »

وليس في قدرتي أن أصف بلاد هذه المملكة كلها، فليقع القارئ
منى بوصف العاصمة التي أقمت فيها رذحا من الزمن.

يخترق هذه المدينة نهر كبير فيقسمها قسمين متساويين تقريبا. وبها
ثمانون ألف منزل، ولا يقل عدد سكانها عن ستمائة ألف نسمة. وهي
أطول من « إنجلترا » بنحو أربعة وخمسين ألف مرة، وعرضها أفصح من
عرض « إنجلترا » بنحو خمسة وأربعين ألف مرة. وقد عرفت ذلك من
المصورة الملكة لهذه البلاد، وطولها مائة قديم. وقد وضعها العلماء
إجابة لرغبات الملك.

وقد بسطت على الأرض لأدرسها.

أما قصر الملك، فهو على شيء قليل من النظام، يتألف من عدة

أبنية متقاربة، وفيه نحو سبعة آلاف قبو، ويبلغ ارتفاع أكبر الحجر
فيه مائتين وأربعين قدما.

٥ - في شوارع « برُبدنجاج »

وقد أعدوا لي عربة لاتنزه - مع الحاضنة - في شوارع المدينة
وميادينها، وأزور فنادقها وحدائقها، وكانت هذه العربة أشبه بحجرة
كبيرة مربعة الشكل.

وإني لأذكر أن العربة قد وقفت بنا - ذات يوم - عند كان أحد
التجار، فانتشر المستجدون هذه الفرصة، وأقبلوا إلى باب العربة يتكففون؛
فرايت أمامي جمهرة من المرضى والعجزة، وذوي العاهات، وهم مشوهو
الخلقة، وعلى أجسادهم كومات من القاذورات، وقد تقيحت جروحهم،
وسرت فيها جرائم الأمراض الفتاكة. وما أنس لا أنس - ما حبيت -
تلك المناظر المرعبة المفزعة التي رأيتها في ذلك اليوم. وللقارئ أن يتخيل
شعوري - حينئذ - وأن يحكم بنفسه على الأمر السي الذي ركته في قسي
رؤية هؤلاء المشوهين، ولعله يعطيني من الإفاضة في أوصافهم البسعة.

بَشْرَةَ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْغَضَّةِ الرَّقِيقَةِ : خَشِنَةٌ جَامِدَةٌ ، كَثِيرَةُ التَّجَاعِيدِ ، وَأَسْعَةٌ
التُّقُوبِ ، لَيْسَ فِيهَا مَا كُنْتَ تَرَاهُ مِنْ جَمَالٍ وَطَرَاوَةٍ . وَهَذَا هُوَ سِرُّ مَا رَأَيْتَهُ فِي
هَؤُلَاءِ الْعَمَالِقَةِ مِنْ تَنَافُرٍ وَتَشْوِيهِ . وَلَقَدْ صَدَّقَ الْفَيْلَسُوفُ الْقَدِيمُ حِينَ قَالَ :
« لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَخْلُوقٌ دَمِيمٌ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَخْرَجَتْهُ يَدُ ذَلِكَ الصَّانِعِ الْعَظِيمِ
الَّذِي أَبْدَعَ الْكَوْنَ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، إِنَّمَا هُوَ جَمِيلٌ ! »

٧ - فِي الزُّورِقِ الصَّغِيرِ

وَكَانَتْ الْمَلِكَةُ - كَمَا قُلْتُ - تَأْتِي إِلَى حَدِيثِي ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ الْمَزِيدَ ،
وَتَتَوَخَّى تَسْلِيَتِي وَإِبْهَاجِي كُلَّمَا وَجَدْتَنِي مُفَكِّرًا مَهْمُومًا . وَكُنْتُ كَثِيرًا
مَا أَقْصُ عَلَيْهَا أَنْبَاءَ أَسْفَارِي وَرِحْلَاتِي فِي الْبَحَارِ . فَسَأَلْتَنِي ذَاتَ يَوْمٍ :
« أَفِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ زورِقًا ، وَأَنْ تَجْدِفَ ، فَلَا يُصِيبَكَ ضَرَرٌ ؟
أَوْ لَا تَرَى فِي مِثْلِ هَذَا التَّمَرِّينِ سُلُوبَ لَهْمُومِكَ وَأَحْزَانِكَ ، وَخَلَاصًا مِنْ
سُجُونِكَ وَأَفْكَارِكَ ، وَتَقْوِيَةً لَجِسْمِكَ ، وَتَوْفِيرًا لِصِحَّتِكَ ؟ »

قُلْتُ لَهَا :

« إِنِّي جِدُّ خَيْرٍ بِالْمِلَاحَةِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ مِهْنَتِي الَّتِي تَخَصَّصْتُ لَهَا أَنْ

٦ - الْحُسْنُ وَالْقَبْحُ

وَلَقَدْ مَرَّتْ بِخَاطِرِي - فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ - خَوَاطِرُ فِلَسْفِيَّةٍ
أَفْضَى بِهَا إِلَى الْقَارِيءِ ، لَمَّا لَمَّ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَدَرَسًا نَافِعًا لِمَنْ يُرِيدُونَ
أَنْ يَتَعَرَّفُوا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ ، وَيَتَعَلَّمُوا فِي لُبِّهَا وَصَمِيمِهَا ، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ
ظَوَاهِرُهَا الْخَلَّابَةُ . فَقَدْ أَتَاكَ لِي الْفُرْصَةُ أَنْ أَرَى كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ هَذِهِ
الْمَدِينَةِ وَنِسَائِهَا ، وَلَاخِظْتُ أَنْ أَجْسامَ أَكْثَرِ مَنْ رَأَيْتُ غَيْرَ مُتَّبِقَةٍ
وَلَا مُتَنَاسِبَةٍ . وَقَدْ عَرَفْتُ سِرَّ هَذَا التَّنَافُرِ ؛ فَإِنَّ الْعُيُوبَ إِذَا صَفَرَتْ قَلَمًا
يَرَاهَا الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا كَانَ وَاسِعَ الْخَبْرَةِ ، دَقِيقَ الْمُلَاحَظَةِ . فَإِنَّ كُبْرَتَ
هَذِهِ الْعُيُوبِ وَضُوعِفَتِ ، أَدْرَكَهَا الْإِنْسَانُ بِأَذْنِ نَظَرٍ ، وَأَيْسَرَ الْمُلَاحَظَةَ .
فَهَذَا الْوَجْهُ الْحَسَنُ - الَّذِي أَعْجَبَكَ جَمَالُهُ ، وَفَتَنَتْكَ رَوْعَتُهُ ، وَالَّذِي
انْتَضَمَتْ أَجْزَاؤُهُ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ الْعَيْنَانِ وَالْأَنْفُ وَالْفَمُ وَالذَّقْنُ وَالْوُجُنَّتَانِ
وَالجَبِينُ - يَرُوعُكَ مَنَظَرُهُ ، فَصِفَهُ بِشَيِّ أَوْصَافِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ . فَإِذَا
نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَرَاءَ مِجْهَرٍ ، ظَهَرَ لَكَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ عُيُوبٍ وَتَشْوِيهِ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ
الْمَجْرُودَةُ . وَثَمَّةٌ يَنْقَلِبُ إِعْجَابُكَ بِهِ وَافْتِنَانُكَ ، تَهَزُّزًا وَاسْتِبْشَاعًا ؛ إِذْ تَرَى

أكون طيبًا للشفن، وقد كان ذلك يضطرنى - في كثير من الأحيان -
أن أعمل مع الملاحين. ولكننى لا أستطيع أن أستقل زورقًا في هذه
البلاد؛ فإن أصفر زورق عندكم كأ كبير سفينة حربية عندنا! على أننى
إذا ظفرت بزورق صغير يناسب حجمى، فليس فى قدرتى أن أجذف
مدةً طويلة فى عُباب أنهاركم الواسعة؛ فإن قواى محدودة، مناسبة
ضالة جسمى.

فقلت لى جلالتها:

« أستطيع أن أمر النجار - إذا شئت - أن يصنع لك زورقًا صغيرًا
يناسب حجمك، كما أستطيع أن أهيب لك مكانًا صالحًا لتسير هذا
الزورق الصغير. »

فشكرت لها هذه العناية التى اختصتنى بها. ولم يمض على ذلك ستة
أيام حتى أتت النجار صنع سفينة صغيرة كاملة المعدات، تحمل ثمانية من
أمثالى. فلما أتتها أمرته الملكة بعمل حوض من الخشب طوله ثلثمائة
قدم، وعرضه خمسون قدمًا، وعمقه ثمانى أقدام، وأن يطله بالقار - بعد
الإنهاء من صنعه - حتى لا يتسرب إليه الماء، ثم يضع ذلك الحوض فى

خارجى من أمهاء القصر. وقد أوصته بعمل بالوعة فى قاع الحوض
لتصريف الماء وتجديده، فى الفينة بعد الفينة. فلما أتم صنع الحوض،
ملأه اثنان من الخدم فى نصف ساعة.



وقد وقت الملكة
وصيغاتها يرقين
رغوبي، وأعجبين
بمهارتى وخبرتى
إعجابًا شديدًا.

وكنت أنشر
الشرع أحيانًا، وأقود

الزورق حتى يقرب منهن، فيعملن المراوح، فيكنى هواؤها لدفع الشراع
وتسير الزورق. فإذا تعبت من ذلك جاء الخدم فنفخوا بأفواههم، فينطلق
الزورق فى الحوض. وكنت أظهر أمامهن - فى كثير من الأيام -
مهارتى فى تسير الزورق من الجانب الأيمن إلى الأيسر - كما يخلولى -
وكن يعجبين من ذلك أشد العجب.

فَإِذَا انْتَهَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، رَفَعْتُ الْحَاضِنَةَ زَوْرَقِي بِيَدَيَّ ، وَعَلَّقْتَهُ بِمِسْمَارٍ فِي حَائِطِ الْقَصْرِ لِيَجِفَّ .

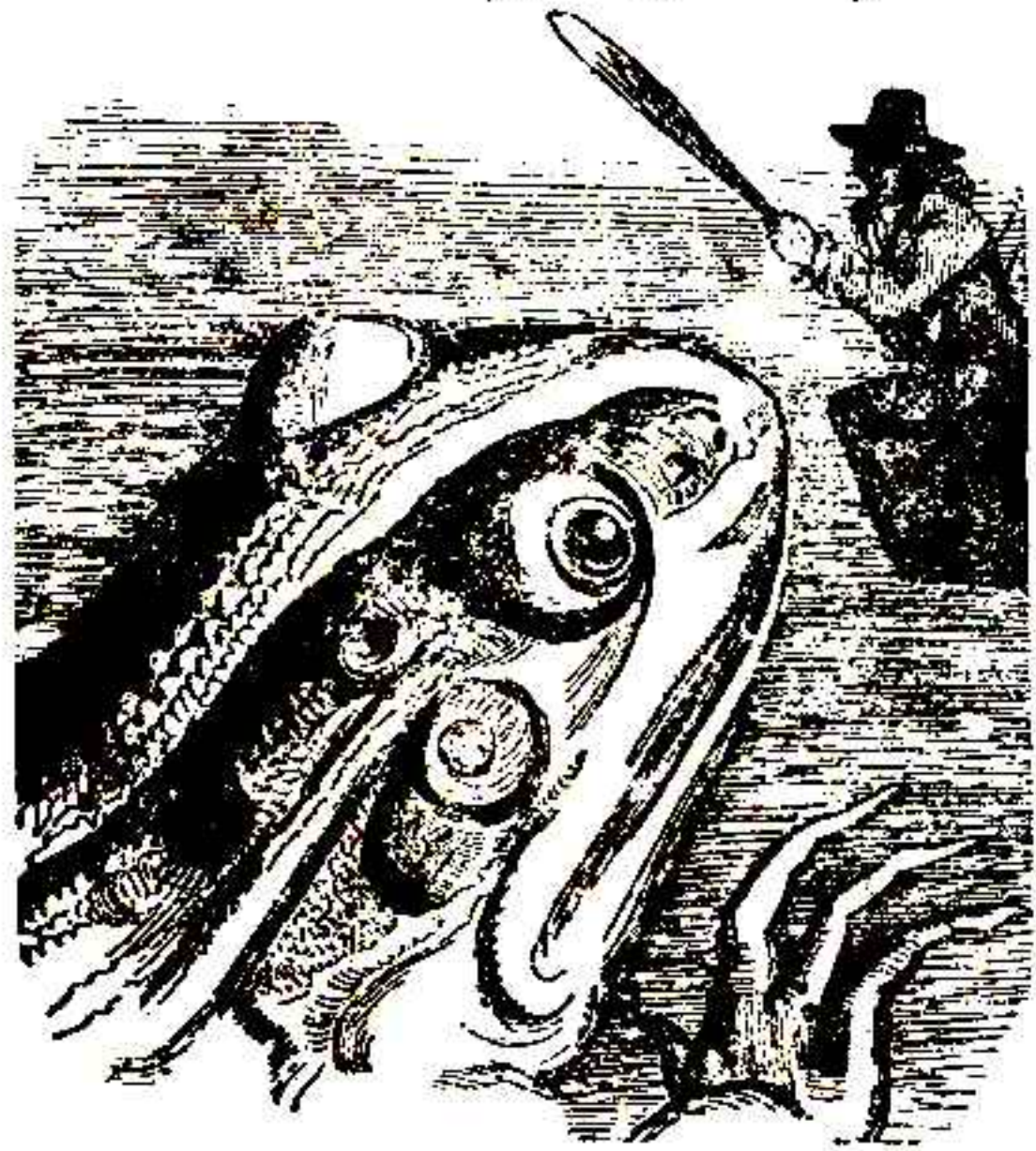
٨ - عَلَى شَفَا الْهَلَاكِ

وَقَدْ وَقَعَ لِي - ذَاتَ يَوْمٍ - حَادِثٌ مُرَوِّعٌ كَادَ يَقْضِي عَلَيَّ حَيَاتِي . فَقَدْ وَضَعْتُ أَحَدُ الْخُدَمِ الزَّوْرَقَ فِي الْحَوْضِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ حَتَّى جَاءَتْ سَيِّدَةٌ فَرَفَعْتَنِي بِيَدَيْهَا لِتَضَعَنِي فِي السَّفِينَةِ ؛ فَانزَلْتُمْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهَا ، وَكِدْتُ أَهْوِي مِنْ هَذَا الْإِرْتِقَاعِ الشَّامِخِ الَّذِي لَا يَقَالُ عَنْ أَرْبَعِينَ قَدَمًا . وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ هَذَا الْهَلَاكِ الْمُحَقَّقِ ، فَعَلِمْتُ نِيَابِي - لِحُسْنِ حَظِّي - بِ« دَبُّوسٍ » كَبِيرٍ كَانَ فِي نِيَابِيهَا مُحَاذِيًا صَدْرَهَا ، فَلَبِثْتُ مَعْلَقًا فِي الْهَوَاءِ ، وَأَسْرَعَتِ الْحَاضِنَةُ إِلَيَّ ، فَأَقْبَضَتْني مِمَّا أَنَا فِيهِ .

٩ - ضِفْدَعٌ « بَرُبْدِنَجَاغ »

وَوَقَعَتْ لِي حَادِثَةٌ أُخْرَى مُفْرَعَةٌ لَا أَنْسَاهَا مَا حَبِثْتُ ؛ فَقَدْ أَهْمَلْتُ أَحَدُ

الْخَادِمِينَ الْمَنُوطِينَ بِمَا مِثْلُ الْحَوْضِ ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمَا أَنْ يُجَدِّدَا مَاءَهُ مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ؛ فَفَقَّرَ



ضِفْدَعٌ كَبِيرٌ إِلَى الْحَوْضِ وَلَمْ يَرَهُ أَحَدًا مِنْهُمَا ، وَاخْتَفَى فِي الْمَاءِ حَتَّى رَأَى زَوْرَقِي ، فَفَقَّرَ عَلَيَّ أَحَدًا جَانِبِيهِ ، فَأَمَالَهُ حَتَّى كَادَ يُغْرِقُنِي . فَجَلَسْتُ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الزَّوْرَقِ ؛ لِأُحْوَلَ

دُونَ إِغْرَاقِهِ ، وَظَلَلْتُ أَضْرِبُ ذَلِكَ الضَّفْدَعِ بِمِجْدَانِي - بِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ - حَتَّى قَفَرْتُ إِلَى الْمَاءِ نَائِيَةً . وَقَدْ تَرَكَ هَذَا الْحَادِثُ فِي نَفْسِي أَثْرًا لَا يُمَحَى ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْسَاهُ طَوَالَ عُمْرِي !

١٠ - قِرْدٌ « بَرُبْدِنَجَاغ »

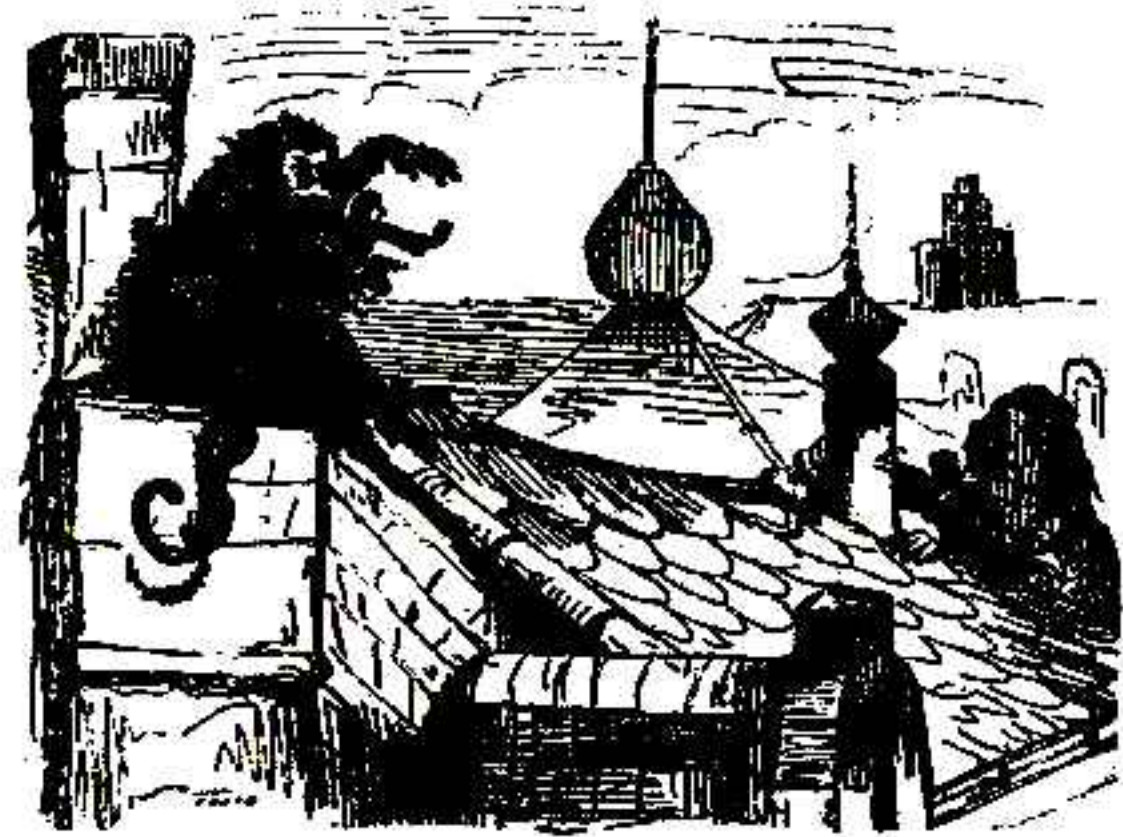
وَهَيَّاتَ أَنْ أَنْسَى أَشْأَمَ حَادِثٍ وَقَعَ لِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ؛ فَقَدْ أَغْلَقْتُ عَلَيَّ

الحاضنة باب الحجرة - ذات يوم - وخرجت لبعض شأنها، وكان اليوم شديد الحر؛ ففتحت نافذة علتي المطلة على بهو القصر. وإني لفارق في تفكيري وأحزاني على مقربة من المنضدة، إذ سمعت صوتًا غريبًا، وأحسنت شيئًا يدخل البهو - من نافذته المفتوحة - ثم يقفز فيه. فامتألت قلبي رعبًا، ولكنني تشجعت قليلًا، ونظرت من نافذة علتي وأنا جالس في مكاني، فرأيت حيوانًا يذو من العلية وينظر إلي، وقد بدت عليه أمارات المريح والدهشة؛ فانزوت في أقصى ركن في الحجرة، وقد فاتني - لسوء حظي - أن أختبي تحت سريري، وقد كان ذلك ميسورًا لي - لو فطنت إليه - ولكنه القضاء الذي لا مرد لحكمه، ولا حيلة للإنسان في دفعه. وتمكن ذلك الحيوان - وقد علمت بعد قليل أنه قرود - من إدخال يده من نافذة العلية، حيث أمسك بيدل ثوبي - وهو مصنوع من الجوخ الغليظ المتين - وجذبني بقوة إلى الخارج، ثم حملني في كفه اليماني - كما تحمّل الأم رضيعها لترنسه - فذكرني ذلك بقرود حيث رأته في بلادى بصنع مثل هذا مع قط صغير. وما هممت بمقاومته حتى ضمني ضمة عنيفة كادت تزهق روعي؛ فرأيت من الحرامة

والكياسة أن أذعن للقدر، وأكف عن المقاومة. وكأنا توهمني قرودًا صغيرًا، لأنه كان يداعبني ويربت وجهي بيده مترققًا مسرورًا.

وأحس القرد خفق أقدام قريبي، وسمع صرير المفتاح، فكف عن مداعبتي فجأة، وقفز مسرعًا - من النافذة التي جاء منها - إلى الميزاب، وهو يسير على رجلين، ويد واحدة، وقد أمسكني باليد الأخرى، وما زال يقفز حتى وصل إلى سطح البيت المجاور لنا. وسمعت في هذه اللحظة صراخًا هائلًا منبعثًا من الحاضنة التي أقم قلبها الفزع، واشتوى عليها اليأس حتى كاد يفقد رُشدًا. وأسرع خدم القصر يحاولون إنقاذي، فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا. وجاء بعضهم بالسلاطيم، واجتمع كثير من الناس ليروا هذا المنظر العجيب. وقد جلس القرد على ذروة السطح، وحملني في إحدى كفيه - كما يحمّل الطفل دميته - وظل يطعمني بكفه الأخرى، ويزج بقطع اللحم - التي سرقها - في فمي زجًا، وكلما امتنعت عن الأكل لطمني؛ فأذعنت له مرغمًا. وقد أضحك القرد - بهذا العمل - كثيرًا من السفهاء الذين وقفوا يشهدون ذلك المنظر، فلم يتمالكوا من الضحك - ولهم الحق - فقد كان المنظر مسليًا مضحكًا حقًا، إلا في

نظري أنا وخذى؛ إذ كنت بطل هذه المأساة المفجعة، وكنت عرضة
للهلاك بين لحظة وأخرى!



وهم بعض النظارة
بقذفه بالحجارة،
ليزعموه على النزول من
سطح القصر إلى الأرض،
ولكنهم عدلوا عن ذلك
خشية أن يصيبني حجرٌ

من أحجارهم، فيحطم رأسي تحطيمًا. وما ارتقوا السلالم، حتى
فرغ القرد وفرًا هاربًا من مكانه، بعد أن تركني أهوى من ذلك العلو
الهائل. وقد كنت - لا شك - هالكًا، لولا لطف الله بي وعنايته؛ فقد
سقطت على أحد ميازيب القصر، فأسرع غلام شيطاني إلى مكاني، فأنقذني
من السقوط. ثم وضعني في جيبه، وعاد - من حيث أتى - فأسلمني إلى
الحاضنة الصغيرة، وقد فرحت بسلامتي من الهلاك فرحًا لا يوصف.

...

ولا أكنتم القاري أنني كنت على وشك الاختيار بتلك الأقدار التي
كان يزج بها القرد في فيمي. وقد أدركت الحاضنة حقيقة أمرى، فبدلت كل
جهد لها حتى تقايات؛ فخفت ما بي من الألم. وكان الضعف قد بلغ بي كل
مبلغ، وكادت أضلاعي تنكسر من ضمة ذلك القرد الخبيث. وقيت
طريح الفراش خمسة عشر يومًا كاملة، وكان الملك وحاشيته يبعثون إلى
في كل يوم بتحياتهم مستفسرين عن صحتي. وقد شرفني الملكة
بزيارات عدة إبان مرضي. ثم صدر الأمر بإهلاك ذلك القرد، وإبعاد
جميع القردة، وألا يرخص لأحد من القاطنين في الشوارع المجاورة
للقصر باقتناء قرد في بيته.

١١ - في حضرة الملك

وما تماثلت من المرضى، ودخلت في دور النقه، حتى ذهبت إلى
جلالة الملك لأشكر له تفضله بالسؤال عني، والعناية بأمرى. ولما
مثلت بين يديه حياتي مبتسمًا، وظل يداعبني. وقد أعرب في الضحك
حين تصور ذلك الحادث المفزع الذي وقع لي، وسألني مستفسرًا:

« خَبَّرَنِي كَيْفَ كَانَ وَقَعُ هَذَا الْحَادِثِ فِي نَفْسِكَ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ تَرَكَهَ؟ وَمَاذَا أَحْسَنْتَ وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَرْدِ؟ وَهَلِ اسْتَطَبْتِ مَا قَدَّمَهُ لَكَ مِنْ لَحْمٍ شَهِيٍّ؟ وَهَلِ زَادَ الْهَوَاءُ النَّقِيَّ - الَّذِي اسْتَنْشَقْتَهُ فَوْقَ سَطْحِ الْقَصْرِ - فِي شَهِيَّتِكَ لِذَلِكَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ كَانَ يَتْرَكُهُ مِثْلُ هَذَا الْحَادِثِ فِي نَفْسِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَ فِي بَلَدِكَ؟ »

قُلْتُ لِجَلَالَتِهِ:

« لَيْسَ فِي أَوْرُبَةِ مِنَ الْقِرْدَةِ إِلَّا مَا نَجَلِبُهُ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى . عَلَى أَنَّ الْقِرْدَةَ - الَّتِي نَرَاهَا فِي بِلَادِنَا - غَايَةٌ فِي الصَّغَرِ ، فَلَا يَخْشَى أَذَاهَا أَحَدٌ .

أَمَّا هَذَا الْقَرْدُ الَّذِي اخْتَطَفَنِي - وَهُوَ فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ الْفِيلَةِ عِنْدَنَا - فَهُوَ مَرْهُوبُ الْأَذَى ، مَخْشَى الضَّرَرِ . عَلَى أَنَّي أَوْ كَدُّ إِيوَالِي أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ أَذْهَلَنِي عَنِ مُقَاوَمَتِهِ ، فَأَنْسَانِي أَنَّ أُجْرَدَ حُسَامِي لِمَهَابَاتِهِ وَدَفَعِ أَذَاهُ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَضْرَبْتُ يَدَهُ بِالْحُسَامِ حِينَ أَدْخَلَهَا فِي حُجْرَتِي ؛ إِذْ نَ لَجَرَحْتُهَا جُرْحًا يَلِينًا ، يَدْفَعُ عَنِّي أَذِيَّتَهُ ، وَيَرْجِعُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَى ! »

وَقَدْ تَمَلَّكْتَنِي الْحَمَاسَةُ وَالْفُرُورُ - حِينَئِذٍ - فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى

مَشْبَعِي سَيْفِي - شَأْنُ الْفَارِسِ الشُّجَاعِ الْمُخْتَالِ - وَكَانَتْ نَبْرَاتُ صَوْتِي تَدُلُّ عَلَى الزَّهْوِ ، وَقَدْ تَمَلَّكْنِي شُعُورُ الرَّجُلِ النَّبِيلِ الْغَيُورِ عَلَى شَرَفِهِ !

وَرَأَى الْعِمَالِقَةَ أَمَامَهُمْ حَشْرَةً ضَنْبِيَّةً تُدَافِعُ عَنْ كِرَامَتِهَا وَشَرَفِهَا - مُبَاهِيَةً مَرْهُوَّةً - فَلَمْ يَتَمَالَكُوا مِنَ الصَّحْحِ . وَلَمْ يَحُلْ جَلَالُ مَجْلِسِ الْمَلِكِ وَوَقَارُهُ دُونَ أَنْ يَسْخَرُوا مِنْ غُرُورِي وَخِيَلَاتِي !

فَأَدْرَكْتُ خَطِيئِي - حِينَئِذٍ - وَالتَّمَسْتُ لِهَوْلَاءِ الْعِمَالِقَةِ الْعُذْرَ فِي سُخْرِ يَتِيمِي مَنِي ، وَذَكَرْتُ أَنَّ مِنَ الْبَلَاءَةِ أَنْ أَذْكَرَ الشُّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ أَمَامَ قَوْمٍ فِي مِثْلِ قُوَّةِ الْمَرْدَةِ وَطُولِ قَامَاتِهِمْ . وَتَمَثَّلْتُ غُرُورَ بَعْضِ الصَّعَالِيكِ الَّذِينَ طَالَمَا سَخِرْتُ - فِي بِلَادِنَا - مِنْ إِدْعَائِهِمْ وَتَبَجُّحِهِمْ أَمَامَ سَرَاةِ الْبِلَادِ وَحُكَّامِهَا ، وَكَيْفَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ ، فَلَا يَلْقَوْنَ إِلَّا الْإِزْدِرَاءَ وَالتَّخْفِيرَ !

١٢ - بَيْنَ الْحَاضِنَةِ وَ« جَلْفَرِ »

وَلَمْ أَنْسَ هَذَا الدَّرْسَ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَأَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ

أَجَارِيَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ ، وَأُقْصَّ عَلَى الْحَاشِيَةِ - فِي كُلِّ يَوْمٍ - قِصَّةٌ مُضْحِكَةٌ طَرِيفَةٌ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ حَبِيبًا إِلَى كُلِّ نَفْسٍ .

وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ - عَلَى حُبِّهَا إِيَّايَ - تَمِيلُنِي إِلَى مُدَاعَبَتِي ، فَتُسِرُّنِي إِلَى الْمَلِكَةِ بِمَا أَقْعُ فِيهِ مِنَ الْفُلْطِ ، لِتَشْتَرِكَ مَعًا فِي السَّرُورِ وَالِإِبْتِهَاجِ ، وَلِتَضْحَكَا مِنِّي مَا شَاءَتَا أَنْ تَضْحَكَا .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِي - فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ - إِذْ نَزَلْتُ مِنَ الْعَرَبَةِ وَمَشَيْتُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَاضِنَةِ . وَإِنِّي لَا تَنْزَهُهُ إِذْ اعْتَرَضَنِي فِي طَرِيقِي رَوْثُ بَقْرَةٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ مَهَارَتِي ؛ فَفَقِرْتُ - مِنْ قُوْرِي - وَلَكِنِّي سَقَطْتُ لِسُوءِ حَظِّي ، وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ . وَقَدْ تَلَوَّثْتُ ثِيَابِي ؛ وَحَاوَلْتُ الْحَاضِنَةَ وَالْخَدَمَ تَنْظِيفَهَا ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ . وَأَبَتِ الْحَاضِنَةُ الْحَمَقَاءَ إِلَّا أَنْ تُذِيعَ نَبَأَ هَذَا الْحَادِثِ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ ! ...

الفصل الخامس

١ - مُشْطُ « جِلْفَر »

كَانَ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَلِكِ عِنْدَ اسْتِيقَازِهِ مِنَ النَّوْمِ فِي الصَّبَاحِ ، مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْحَلَّاقَ عِنْدَهُ وَهُوَ يَخْلُقُ لِحِيَّتَهُ . وَأَذْكَرُ أَنِّي حِينَ رَأَيْتُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى

- وَالْحَلَّاقُ جَادٌّ فِي

خَلْقِ لِحِيَّتِهِ - امْتَلَأَتْ

نَفْسِي رُغْبًا وَهَلْمًا ؛

فَقَدْ كَانَ طَوْلُ الْمَوْسَى

أَكْبَرَ مِنْ ضِعْفِ

طَوْلِ الْمِنْجَلِ عِنْدَنَا .

بِوَكَانَ مِنْ عَادَةٍ

بِجَلَالَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لِحِيَّتَهُ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ ؛ عَلَى حَسَبِ تَقَالِيدِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَعَادَاتِهَا .



وقد طلبت من الحلاق - ذات مرة - أن يعطيني عدة شعرات من لحيّة الملك ، فلم يتردد في إجابتي إلى طلبي . فأخذت قطعة صغيرة من الخشب وثقبتها - بإبرة - عدة ثقوب على مسافات متساوية منتظمة . ثم أدخلت - في تلك الثقوب - ما أخذته من شعرات الملك بدقة وانتظام ، وتم لي صنع المشط الذي أردته . وكان المشط الذي أحضرته معي من بلادى قد انكسر ؛ فاستبدلت به هذا المشط المتين ، بعد أن عجزت عن الظفر بمشط صغير ، ويئست من العثور على عامل كفء يصنع لي المشط الذي يلائمني .

٢ - كرسي « جلفر »

وما إن ظفرت بتحقيق هذه الرغبة ، حتى سنع لي خاطر آخر ، فرجوت إحدى خادِمات الملكة أن تلتقط لي ما يسقط من رأسها من شعرات - في أثناء امتشاطها - فلبت طلبي ، وأحضرت لي عددا كبيرا من شعرات الملكة . فأعطيتها للنجار ليصنع لي كرسيين يناسبان ضالة جسمي ، وأرشدته إلى طريقة صنعهما ، وأوصيته أن يكونا في حجم الكرسيين اللذين

صنعهما من قبل ، وأن يثقب الخشب عدة ثقوب منتظمة . فلما أتتهما ملأت ثقوبهما بشعرات الملكة ؛ فأصبح عندي مقعدان فاخران وفق ما أشتهي وأريد . ثم أهديتهما إلى الملكة ؛ ففرحت بهما ووضعتهما في خزانتها ، بعد أن شكرت لي أن أهديت إليها هاتين الطرقتين الشمينتين ! وأذكر أنها طلبت إلي - ذات يوم - أن أجلس على أحدهما ، فاعتذرت لها قائلاً :

« لن تصل بي الجرأة وسوء الأدب إلى حد أن أجلس على هذه الشعرات المحترمة التي زينت - من قبل - رأس الملكة الجليل ! »



وبعد أيام صنعت
من شعرها كرسيا
جميلا طوله ذراعان ،
وطرزته باسمها

بحروف من الذهب . ثم استأذنتها في إهدائه إلى الحاضنة ؛ فأذنت لي في ذلك ، وهي مسرورة بإخلاصي ، وحسن وفائي لهذه الحاضنة الوفيّة .

وكان أحدُ مُدرِّسي الموسيقى يتعهدُها ، ويُخصِّصُ لتعليمها درَّسين في كلِّ أسبوعٍ .

وقد عنَّ لي أن أعزِفَ لِحنا موسيقياً أمامَ جلالتي الملكِ والملكة ،

ولكنَّ ذلك لم يكن
بالأمرِ اليسيرِ الهينِ ؛
فقد كان طولُ كلِّ

دستانٍ من الدساتين
ستينَ قدماً ، وعرضُه
قدماً ، وكنتُ
— إذا بسطتُ ذراعيَّ

كلَّ البسطِ —

لا أستطيعُ أن ألمسَ
أكثرَ من خمسةٍ
دساتينَ ، وكنتُ

— إلى ذلك — لا أستطيعُ أن أُحرِّكَ الدستانَ بإصبعي ؛ لأنَّ إخراجَ النغمةِ

٣ - موسيقا العمالقة

وكان لملك « بُردنجاج » شغفٌ شديدٌ بالموسيقا . وقد شهدتُ كثيراً
من الحفلاتِ الموسيقيةِ التي أقامها . وكنتُ أشهدُ تلك الحفلاتِ
— وأنا في عُلمتي — ولكنَّ موسيقاهم كانت تُزعجني أشدَّ الإزعاجِ ، لأنَّ
أصواتها شديدةُ الارتفاعِ .

ولم أكنُ أستطيعُ تمييزَ النغماتِ بينَ هذا الصخبِ — وهي على
مقربةٍ من أذني — ولم أطقُ صبراً على سماعِ الطبولِ .

فقد كنتُ أسمعُ لها دويّاً هائلاً مزعجاً ، ولم يكن في قدرتي أن أحمِلَ
أصواتَ أبواقهم المفزعةِ . فاستأذنتُ الملكَ أن أكونَ في عُلمتي
على مسافةٍ بعيدةٍ من الموسيقا ، فكنتُ أقفلُ على بابِ عُلمتي ونافذتِها .
وأسدلُ أستارها ، فيخفُّ الصوتُ والضوضاءُ ، وبذلك يتسنى لي التمييزُ
بينَ أنغامها المختلفةِ .

وكنتُ على شيءٍ من العِلْمِ بالموسيقا ؛ فقد تعلَّمتُ — في حداثتي —
الإيقاعَ على المعازِفِ . ورأيتُ في عُرفةِ الحاضنةِ معزفاً تتعلمُ العزفَ عليه ،

المُوسِيقِيَّةِ عَلَى هَذَا الدَّسْتَانِ الضَّخْمِ الْعَظِيمِ يُكَلِّفُنِي أَنْ أُضْرِبَ عَلَيْهِ
بِجُمُعِ يَدِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً .

وَبَعْدَ فِكْرٍ طَوِيلٍ اهْتَدَيْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ نَاجِحَةٍ ؛ فَأَحْضَرْتُ عَصَوَيْنِ
- فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ عَصِينَا الْمَعْتَادَةِ - ثُمَّ غَشَّيْتُ طَرَفَيْهِمَا بِجِلْدِ فَاوَرَةٍ ،
حَتَّى يَتَسَنَّى لِي أَنْ أُعْزِفَ بِهِمَا عَلَى الدَّسَاتِينِ . وَدَعَوْتُ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ ، بَعْدَ
أَنْ أَتَيْتُ بِمَقْعَدٍ طَوِيلٍ ؛ فَأَدْنَيْتُهُ مِنَ الدَّسَاتِينِ ، ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، وَظَلَلْتُ
أَجْرِي - فِي رَشَاقَةٍ وَسُرْعَةٍ - عَلَى ذَلِكَ الْمَقْعَدِ الْمُسْتَطِيلِ ، وَأَنَا أَدُقُّ
الدَّسَاتِينِ بِعَصَوَيْ دَقًّا شَدِيدًا بِكُلِّ قُوَّتِي ، حَتَّى أَتَمَمْتُ عَزْفَ لَحْنِ
مُوسِيقِي رَائِعٍ ، أَمَامَ الْمَلِكَيْنِ (الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ) . وَقَدْ أُعْجِبَا بِهَذَا
اللَّحْنِ الَّذِي كَلَّفَنِي جُهْدًا مُضْنِيًا ، وَإِنِّي أَوْكَدُ لِلْقَارِي أَنَّنِي لَمْ أَتَكَبَّدْ
فِي حَيَاتِي كُلِّهَا - مِنَ الْجُهْدِ وَالْعَنَاءِ - مِثْلَ مَا تَكَبَّدْتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! ...

٤ - بَيْنَ « جَلْفَر » وَ« مَلِك » بِرُبْدِ نَجَاجٍ «

عَرَفْتُ الْمَلِكَ - كَمَا أَسَلَفْتُ - وَاسِعَ الْعِلْمِ ، مَوْفُورَ الذِّكَاةِ ؛
كَأَعْرَفْتُهُ طُلْعَةً ، مُوَلَعًا بِتَقْصِي الْأَخْبَارِ . وَكَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا مَا يَدْفَعُهُ إِلَى

اسْتِدْعَائِي إِلَيْهِ ، وَالتَّحَدُّثِ مَعِي . وَكُنْتُ أُحْمَلُ إِلَيْهِ فِي عُلْبَتِي ، ثُمَّ أُوَضَعُ عَلَى
الْمِنْضَدَةِ - حَيْثُ أُخْرَجُ مِنَ الْعُلْبَةِ ، فَأَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ
بِحَيْثُ أَكُونُ مِنْهُ وَجْهًا إِلَى وَجْهِهِ - ثُمَّ نَتَجَاذِبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ .



وَفِي يَوْمٍ مِنْ
الْأَيَّامِ تَدَاوَلْنَا الْقَوْلَ ،
وَشَجَعَنِي مَا رَأَيْتُهُ
فِيهِ مِنْ رَجَاحَةِ عَقْلِهِ
عَلَى أَنْ أُكَاشِفَهُ بِمَا
فِي نَفْسِي ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنَّ احْتِقَارَهُ

لِأَهْلِ أَوْرُبَّةَ وَغَيْرِهَا مِنْ قَارَاتِ الْعَالَمِ لَا يَتَّفِقُ - كَمَا يَبْدُو لِي - مَعَ ذَلِكَ
الْعَقْلِ الرَّاجِحِ الَّذِي يَمْتَّازُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ . وَمَا أَجْدَرَنِي أَنْ
أُكَاشِفَهُ بِمَا أَعْتَقِدُهُ صَوَابًا . فَإِنِّي أَرَى أَنَّ رَجَاحَةَ الْعَقْلِ لَيْسَ لَهَا آيَةٌ
صِلَةٌ بِضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ وَكِبَرِهَا . وَقَدْ أَقْنَعَتْنَا الْمُلَاحَظَةُ وَالتَّجَارِبُ
- فِي بِلَادِنَا - بِعَكْسِ مَا يَتَقَدُّهُ : فَقَدْ طَالَمَا رَأَيْنَا أَنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ

قائمة ليس أوفرهم عقلاً ، وكثيراً ما رأينا من طوال الناس من أصبح مَضْرِبَ المَثَلِ في الحماقة والعباوة . وليس ذلك مقصوداً على الإنسان وحده ، بل يشركه فيه بعض الحيوان . وقد امتازت النحلة كما امتازت النملة ، على غيرهما من الحيوان بضروب شتى من المهارة والذكاء ، يدهش لها المتأمل . فإذا كنتُ - كما يراني - ضئيل الجسم ، فليس معنى ذلك أنني ضعيف الفكر ؛ فقد أكون قادراً على أداء كثير من جلائل الأعمال !

وكان الملك يُصغى إلى حديثي بانتباه شديد ؛ فاستصوب ما قلته له ، واقتنع بصحته ، وبدأ ينظرُ إليَّ - منذ هذه اللحظة - نظرة احترام وتقدير ، وأكبر عقلي ، فلم يعد يقيسه إلى قامتي كما كان يفعل من قبل .

٥ - حديثٌ عن الوطن

وقد كان من أثر ذلك أن أمرني أن أذكر له بياناً دقيقاً عن حكومة بلادى ، ليقبس ما يراه من تقاليد صالحة ، ومزايا نافعة . ومثلُ لِنَفْسِكَ - أيها القارئ العزيز - ما كنتُ أشعرُ به حين طلب

إلى أن أتحدث عن وطني العزيز ! لوددتُ - حينئذٍ - أن تكون لي عبقرية « ديمستين » و « شيشيرون » ، وروعةً بيانهما ؛ لأفي وطني العزيز بعض حقه - من الوصف والتصوير - حتى أترك في نفس الملك أسمى فكرة عنه .

٦ - دار النيابة

وقد بدأت حديثي بالكلام عن موقع بلادى الجغرافي ، وذكرت له أن بلادنا تتألف من جزيرتين تحويان ثلاث ممالك قوية ، يحكمها ملك واحد ، وأن لنا - إلى ذلك - مستعمرات في خارج بلادنا . ثم حدثتُه عن خصب أرضنا ، وعن أجوائها وأهويتها ، ووصفتُ له دار النيابة عندنا ، وكيف تتألف من مجلسين ، أحدهما نطلقُ عليه اسم : « مجلس الأعيان » والثاني : « مجلس العموم » ، وأن المجلس الأول يضم سراً البلاد ونبلاتها وأشرفها الذين نشأوا من أعرق الأسر الكريمة حسباً وأشرفها نسباً ، بعد أن يأخذوا بأوفر قسطٍ من الثقافة والتربية العلمية والحربية والسياسية ، حتى ينضج عقولهم وتستقيم فطرتهم ، ويصبحوا أهلاً لتمثيل

البلاد ، فيكون لهم نصيبٌ في إدارة الحكومة ، ويكونوا موضع ثقة البلاد التي تُعَدُّهم للاستشارة في أكبر مُضَلاتِها ، وحلِّ أزماتها ، والدِّفاع عن شرفها ، ثم تختارهم أعضاء في محكمة العدالة التي لا تُعقَّب لأحكامها . وهؤلاء هم فخرُ البلاد وزينتها ، وأبرُّ أبنائها بها ، وأكرمهم عليها . وهذا المجلسُ يضمُّ - إلى تلك الصَّفوة المختارة من سادة البلاد وحكَّامها - عددًا كبيرًا من صَفوة رجال الدين وعلمائه المُمتازين ، وهؤلاء معنيون بالسهر على الأخلاق ونُصرة الشريعة . وهم يجمعون - إلى مائة الخلق - سعة الإطلاع ، ورجاحة العقل ؛ وبذلك كانوا أهلاً لهذا المركز السامي الذي رفعتهم إليه البلاد .

...

أما المجلسُ الثاني - أعني « مجلس العموم » - فهو يتألف من أفذاذ المفكرين ورجال العمل الذين يختارهم الشعب ، ويوليهم ثقته ، ويُنيبهم عنه ، بعد الذي عرفه فيهم من المواهب السامية ، والمزايا الفريدة ، والكفايات النادرة ، والتفاني في نُصرة الوطن . وهذا المجلسُ يمثلُ حكمة الشعب ودرأته .

وذكرتُ له أن هذين المجلسين يُكوِّنان أكبر مجلس نيابي في العالم . وهذا المجلسُ - وعلى رأسه جلالة الملك - يشرف على كلِّ شؤون المملكة ، ويسنُّ لها النظم التشريعية ، ويقضي في كُبرى المسائل الجوهرية التي تشغل بال الدولة .

...

ثم ذكرتُ له محامكنا وما تمتازُ به من الحرص على العدل ، والفصل في منازعات الأفراد ، وتوخي النزاهة والإنصاف في الأحكام ، ومعاينة المجرمين ، وحماية الأبرياء . وامتدحتُ له حُسن إدارتنا المالية ، وما يتوخاه رجال الاقتصاد عندنا من الحكمة في إتيان أموال الدولة في كلِّ ما يعودُ عليها بالفائدة والخير العميم . ووصفتُ له مزايا رجال الجيش من الجنود البرية والبحرية ، وما يُظهرونه من البسالة والاستهانة بالموت ، وبذل أرواحهم رخيصةً في الذود عن الوطن وحمايته من غارات الأعداء ، وما امتازوا به من الشجاعة والإقدام . وقلتُ له - فيما قلتُ - إن شعبنا يتألف من ملايين الرجال وشتى الأحزاب السياسية والأديان المختلفة . وحدثته عن ألبنا وملاييننا ، ولم أعفل شيئًا من خصائصنا ومزايانا

المشرفة. وختمت حديثي بالأمام بما وقع في بلادنا من الثورات منذ مائة عام، وتوخيت - في ذلك - الأيجاز والدقة وحسن البيان. وقد استغرقت هذه المحاضرات خمس جلسات كاملة، كنت أتحدث في كل جلسة منها عدة ساعات. وكان الملك يصغي إلى أقوالى في انتباه ويقظة دائمين، ويكتب خلاصة ما أقول ليناقشه فيما بعد.

٧ - أسئلة وانتقادات

فلما كان اليوم السادس، بدأ الملك يناقشني في كل ما ذكرته له مناقشة دقيقة، وكان قد أعد ملاحظاته وأسئلته، فأفضى إلى بدخلة نفسه، وكاشفني بما يساوره من الشكوك والريب فيما قلته له. ولقد كان - في الحق - دقيقاً في ملاحظاته، قاسياً في أحكامه، ولم يكن من الميسور أن أقنعه بخطئ رأيه وبعده عن الصواب.

٨ - أعيان الدولة

والى القارئ ما قاله لى في حوار طويل:

« ما هي الوسائل التي تتبعونها في تثقيف أبناء العظماء والنبل؟ وماذا

تصنعون بالأسر النبيلة التي يسلمها جدها العائر إلى التدهور والخراب، وهو أمر - كما تعلم - مألوف كثير الحدوث؟ وأي المزايا تشتري طون فيمن ترشحوه لمراتب الأعيان؟ وهل تظن أن للملك يداً في اختيارهم، وأن لأهواء الأُمراء أثراً في تعيينهم - بما لديهم من مال وقوذف - ليخلقوا منهم حزبا قويا يؤيدهم وينصر سياستهم، ويحقق لهم ما تصبو إليه نفوسهم من آماني وأغراض، وإن عارض ذلك مصلحة الشعب؟ وما هو مبلغ علم هؤلاء الأعيان بقوانين بلادهم؟ ولماذا خصصتموهم بتلك الثقة العظيمة، وتركتم لهم القول الفصل، وجعلتموهم المرجع الأخير في أهم شئون الوطن؟ أظنون أنهم - لغناهم وجاههم - قد خلصت نفوسهم من الشوائب والأغراض؟ »

٩ - رجال الدين

ثم قال:

« وماذا ترى في علماء الدين؟ أعتقد أنهم قد وصلوا إلى مراكم في دار النياية بما امتازوا به من علم وفضل، وصلاح وهوى؟ وهل تظن أن

إخلاصهم وقداستهم وطهارة نفوسهم هي التي أكسبتهم هذا المركز الرفيع؟ وهل تمتدُّ أنهم خلصوا من الضغائن، وتجردوا من الأهواء والنقائص، ولم يرتكبوا - منذ نشأتهم - شيئاً من جرائم الغش والخداع والخيانة، ولم يتملقوا أحداً من الأمراء والأعيان، ليصلوا بذلك إلى أعلى مناصب الدولة الدينية، حيث يرتقون إلى مجلس الأعيان؟

١٠ - انتخاب النواب

ثم سألتني عن مجلس النواب، فقال:

« وماذا ترى في المجلس الثاني الذي ذكرته لي؟ أراض أنت عنه وعن طريقة انتخابه؟ أليس من الممكن المحتمل أن يجيء رجلٌ مجهولٌ - وفي يده كيسٌ مملوءٌ ذهباً - فيشترى به أصوات ناخبيه، فيكسب بالذهب ما لا يكسب بالمواهب والمزايا الباهرة، ويفضله ناخبوه على منافيه الكفء الجدير بالنيابة عنهم؟ ولماذا يتهافت مواطنوكم على الانتخاب ويتناحرون في سبيله، لولا قنعتهم بأنهم - بعد أن يصبحوا نواباً - سيؤثرون من كل ما خسرروه من المال في معركة الانتخاب؟ ولا شك أنهم سيتناسون في

سبيل ذلك مصالح البلاد، تقرباً إلى ذوي النفوذ والجاه من الأمراء والأعيان ومن إليهم؟ »

وقد انساق في تعداد هذه الملاحظات القاسية وأمثالها، واندفع بحمل - بلا روية - على نظمنا وتقاليدنا حملات قاسية، وليس من العزم ولا من الخير أن أذكرها في هذا الكتاب!

١١ - دور القضاء



ثم انتقل إلى محاكمنا فانتقدتها، وسألني في شأنها، وكم تستغرق من الوقت في درس القضية والحكم فيها؟ وكم تبلغ نفقات الدفاع؟ وكيف يقبل المحامون أن يدافعوا

عن قضايا خاسرة يعتقدون أنها لا تنفق هي والحقيقة؟ وهل تتأثر هذه

للمحاكم في أحكامها بحزب بعينه؟ أو تخضع لرأي عظيم من ذوي النفوذ والجاه؟ وهل يحتكم القضاء إلى نصوص القانون وحدها؟ أو يتأولون فيها وفق ما يرونه من شتى ضروب الشرح والتأويل؟ وهل تتفق أحكام المحاكم المختلفة في قضية بعينها، أو تتناقض في أحكامها، لاختلاف آراء القضاة، وتباين الشروح والتأويلات الكثيرة لنصوص القانون؟

وقد كان في وُسمى أن أفيض في الكلام عن المحاكم وأصحح آراءه فيها؛ فقد خبرتها في قضية كسبتها - بعد زمن طويل - وقضت لي المحكمة بحق، وبما تكبدته في سبيل الحصول عليه من المال، بعد أن أشرفت على الخراب والإفلاس. ولكنني لم أَرَ فائدة في مناقشته وتصحيح آرائه، بعد أن وجدت إقناعه من المستحيل...

١٢ - أموال الدولة

ثم انتقل إلى سُؤالِي عن إدارة المَالِيَّة، فقال:

« إنك - فيما يبدو لي - قد أخطأت في حسابك، فإنك لم تقدر

الضرائب بأكثر من خمسة ملايين أوستة، على حين أنك تذكر لي أن ما تنفقه الدولة يتجاوز بكثير دخلها الذي ذكرته لي؟ ولست أستطيع أن أدرك كيف تنفق الدولة كل دخلها، ثم تتخطى ذلك إلى الاستدانة من غيرها، كما يفعل الرجل المبدّر سواء بسواء؟

ثم خبرني - أيها العزيز - من هم دائنوك؟ وكيف تؤدون لهم ديونهم بعد أن خرجتم عن جادة القصد إلى الإسراف، وبعد أن تمرّدتم على قوانين الطبيعة، وتخطيتم سبل الحكمة والسداد؟ »

١٣ - نفقات الجيش

ثم أبدى لي دهشته مما سمعته مني في شأن الأموال الطائلة التي أنفقناها في الحروب، فقال:

« لاشك أنكم مشاغبون تنزعون إلى الشر، أو أن جيرانكم أشرار خبيثاء! ثم خبرني: ما أنتم ومنازعات البلاد الأجنبية ومشكلاتها، وهي لا تمت إليكم بنسب؟ لعلكم تريدون أن يكون لكم - في خارج بلادكم - صلات أخرى غير صلات التجارة؟ وما أحسبكم إلا طامعين في الفتح

والغزو؟ وما كان أجدركم أن توجهوا جهودكم كلها لإسعاد بلادكم، والدفاع
عن مرافقتكم، من غير أن تتطلع نفوسكم إلى ما في أيدي غيركم من الأمم.
ثم خبّرتني - أيها الصديق - بعد ذلك: ما فائدة هذا الجيش الكبير
الذي تُنفقون عليه في وقت السلم، ما دام شعبكم حُرّاً راضياً عن حكومته
ونظمه وتقاليده؟ وأيُّ نفع لهذا الجيش؟ ولماذا عُنيتم به؟ وعمّن يُدافع؟
وأيُّ الأمم يُحارب؟ أليس من الخير أن يُدافع سُكّان كلِّ بيتٍ عن
بيتهم، وأن تشترك الأسرةُ ومَن في البيت من أولادٍ وخدمٍ في حماية
أنفسهم، فيكون ذلك أجدى عليهم، وأعوذ بالفائدة من أن يكلوا حمايتهم
والدفاع عنهم إلى جماعة من اللصوص والأشرار، يُؤثّمون من خِثالة
الشعب ودهمائه، ويتقاضون على حمايتهم أجراً زهيداً يُغريهم بالرشوة
والفساد: إذ يرون أن في وسعهم أن يذبحوا ويربّحوا من ذلك مالا كثيراً
يُرَبّي على ما يأخذونه من الأجر مائة مرة؟»

١٤ - ملاحظات عامة

ثم ناقشتني فيما ذكرته له من اختلافِ أحزابِ الشعب ونزعاته

السياسية، وتعدّد أديانه ومياله ونحله. وانتقل من ذلك إلى ما ذكرته
له من أساليب اللّهو التي يقضى سراننا وأعياننا كثيراً من أوقاتهم
فيها، فقال:

«خبّرتني. في آية سنّ تبدأ ألعاب المراهنة؟ وفي آية سنّ يُقلمون عنها؟
وكم ساعة من الزمن تستغرق منهم كل يوم؟ وإلى أي مدى تؤثر في
ثروتهم، وتبدد من أموالهم، وتدفع بهم إلى الفاقة - بخطى سريعة -
وتسوقهم إلى ارتكاب الدنيا والآثام؟ أأست ترى أن كثيراً من الأديان
السفلة الذين لا عمل لهم، والذين فرغوا من مشكلات الحياة، ورصدوا
أوقاتهم لهذه الألعاب، يستطيعون أن يغنيوهم فيها، فيجنوا بمهارتهم
وحدقهم من هؤلاء الأغرار ثروة عظيمة تسلكهم في عداد الأعيان
والثبلاء، وتجعلهم يتحكمون في ساداتهم بعد أن يشرفوا على الخراب
والإفلاس؟ ألا ترى أن من الحكمة وأصالة الرأي أن تقضي الدولة على
مثل هذا اللّهو الآثم المرزى؟»

ثم انتقل إلى مناقشتني فيما سمعته من الحوادث المفزعة في تاريخ
القرن الماضي، ودعش أشدّ الدعشة من تلك الثورات والفتن والمؤامرات،

وما انتهت إليه من قتلٍ وتدميرٍ ، ونفيٍ وتمذيبٍ . وقال لي :
« إنها دليلٌ على اللؤمِ ، والقسوةِ والحقدِ ، والطمعِ ، والجنونِ ! »

١٥ - خاتمة المناقشة

وفي اليوم التالي أجملَ جلالته ما سمعته مني ، وما قاله لي ، ووازنَ بين
أسئلته وأجوبتي ، وكان مُسكِكاً بي بين يديه وهو يداعبني ويلطفني . ثم
ختم محاضرتَه بهذه الكلمات القارعة التي لا أنساها ما حييتُ ، ولا
أنتسى قسوة لهجته وهو ينطقُ بها ، إذ قال :

« لقد مدحتَ وطنك - يا عزيزي - مدحاً مُستفيضاً ، وفضلتَهُ على
كلِّ البلادِ ، فدَلتني على أن الجهلَ والكسلَ والرذيلةَ يُمكنُ أن تُعدَّ - في
بعضِ البلادِ - من المزايا الباهرة النادرة التي يمتازُ بها السُّرَّة والحكامُ .
ورأيتُ أن القوانينَ قد انتقصتْ ، وتآوَلَ رجالكم في تفسيرها ما شاء لهمُ
الهُوى والفائدة واللباقة ؛ حتى أفسدوها وأخرجوها عما وُضعتْ له . وقد
علمتُ أن في بلادكم نظاماً ربمَّا توخى به واضعُه غرضاً نبيلًا ، ولكنَّ فسادَ
النفوسِ قد شوَّهه كلَّ التشويهِ . ولقد أيقنتُ - بما سمعته منك - أن

الفضيلةَ عندكم لا قيمةَ لها ؛ فإنني لم أجِدْ مزيةً واحدةً من مزايا التَّفضيلِ
ترفعُ صاحبها إلى أيةِ مرتبةٍ من مراتبِ الرَّفعةِ والشَّرَفِ . فالتُّوَّابُ لم يصلوا
إلى مكانتهم من النِّيابةِ بإخلاصهم وفضيلتهم ؛ ورجالُ الدينِ لم يرتقوا
بورعيتهم وزهدهم وعلمهم ؛ والجنودُ لم يسموا بشجاعتهم وإقدامهم ؛
والقضاةُ لم يدركوا مناصبهم ببجارتهم وعدلهم ؛ والشيوخُ لم ينالوا مكانتهم
بما أُشربتَهُ نفوسهم من حُبِّ الوطنِ ؛ ورجالُ الحكومةِ لم يظفروا
بمناصبهم بما أُوتوه من دُرْبَةٍ وحِكْمَةٍ وتجربةٍ ! »

ثم أنهى حديثه قائلاً :

« أما أنت - يا عزيزي - فقد قضيتَ أكثرَ حياتك في التجوالِ
والأسفارِ ؛ فلم تسرِ إليك - فيما أظنُّ - عدوى هذه النقائصِ والرذائلِ التي
انغمسَ فيها أبناءُ وطنك . على أنني - بعدَ ما سمعته من أقوالك ، ومن
إجاباتك عن أسئلتِي - أستطيعُ أن أقررَ لك مُتنبِّئًا مما أقولُ : أن قومك
جديرون أن يوصفوا بأنهم أخطرُ أنواعِ الحشراتِ الضَّئيلةِ التي تدبُّ على
وَجْهِ الأَرْضِ ! »

على مناقشات الملك ، وتَحَيَّنْتُ الفرصَ للردِّ على أقواله ، وصبرتُ مرتقبًا يومًا آخرَ يكونُ أكثرَ ملاءمةً لإزالة ما علقَ بنفسه من الأوهام والشُّكوكِ . وقد بذلتُ جُهدِي في إقناع ذلك الملكِ الذَّكيِّ الحصيفِ ، ولكنني - لسوء الحظِّ - لم أشعرُ بشيءٍ من النجاحِ ، بل أَخَفَقْتُ في غرضي كلِّ الإخفاقِ . على أنني التمسْتُ له شيئًا من العذرِ ، لأنه إنما يعيشُ في عُرْلةٍ تامَّةٍ عن العالمِ ، فهو لذلك يجهلُ - بطبيعته - أخلاقَ الأممِ الأخرى وعاداتهم وتقاليدهم . وكثيرًا ما ينشأ عن العُرْلة والجهلِ بتقاليد الشعوبِ الخطأ في الأحكامِ ، والإستسلامُ إلى الخيالِ والوهمِ .

ومن البلاءة أن نأخذ كلَّ اعتراضاتِ هذا الملكِ وانتقاداته وآرائه في فهمِ الفضيلةِ والرذيلةِ أُسْسا نَبني عليها نُظْمنا وتقاليدينا ؛ فهي آراءٌ بعيدةٌ عن التَّجربةِ والتَّمحيصِ .

والحقُّ أن بينَ تفكيرنا وتفكيره هُوَّةٌ سحيقةٌ ، فهو - بطبيعةِ نشأته وعُرْلتِه - يرى في كثير من قضايا الاجتماعِ والسياسةِ عكسَ ما ترى ! ...

٢ - اختراعُ البارودِ

ولقد أردتُ أن أكسبَ عَطْفَه ، وأتجسَّبَ إليه ؛ فذكرتُ له مُخترَعًا

١ - اعتراضاتُ الملكِ

يَأبَى عَلِيٌّ إِخْلَاصِي لِلْحَقِيقَةِ أَنْ أَكْتُمَ مَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ جَلَالَةِ الْمَلِكِ مِنْ الْحَدِيثِ ، كَمَا يَأْبَى عَلِيٌّ إِخْلَاصِي لوطِي أَنْ أَرَاهُ يَحْقُرُهُ وَيُزِرِّي بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَدْفَعَ عَنْ شَرَفِهِ .
لقد أُجِبْتُ عن أسئلته بمهارةٍ ، ووصفتُ له كلَّ شيءٍ في بلادِي



بأحسنِ ما يَصِفُه به مُحبُّ لوطنه ، وتلمَّستُ من مزاياه وحسناته كلَّ ما استطعتُ . ولم يكنْ دِفَاعِي عن وطني ليمنعني الإخْلَاصَ لِلْحَقِيقَةِ ، والإِصْفَاءَ إِلَى كُلِّ رَأْيٍ صَاحِبِ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ . وعلى هذا لم أشأ أن أُغْضِي

ظفرنا به - منذ أربعة قرون - وقلت له إنه مسحوق أسود تلهبه شرارة صغيرة في لحظة، فينسف - إذا شئت - جبالاً راسخة، وتسمع لفرقعة دويًا أشد من جلبة الرعود. وذكرت له أن من الميسور أن يضع شيئًا من هذا المسحوق في أنبوبة - صغيرة أو كبيرة - من البرنز أو الحديد، فينسف ما أمامه، ولا يصد قوته شيء بالغة ما بلغت صلابته. وذكرت له أن بعض هذه القذائف تفك بالجيوش الكثيرة المدد، وتلك أقوى الحصون، وتنسف أضخم البروج، وتغرق أكبر السفن، وتدمر أعظم المدن. فإذا وضع هذا المسحوق في كرة من الحديد، وقذف بها الأعداء، فتكت بهم فتكًا ذريعًا، ودمرت مساكنهم وتناثرت شظاياها - في كل ناحية - فأهلكت كل من أصابته، وسحقت كل ما يعترضها في طريقها. وقد ذكرت له أنني جدد خبري بأسرار هذا المسحوق وطريقة تركيبه، وأن ذلك لن يكلفني أيّ عناء؛ لأنه يتألف من مواد معروفة يسهل العثور عليها في كل مكان، وهي لا تكلف من يشتريها إلا ثمنًا قليلًا، فإذا أذن لي جلالتك، أذعت له أسرار هذا الاختراع؛ ومتى عرف جلالتك ذلك السر أصبح قادرًا على تدمير أقوى

المدن، وأمنع الحصون، وإخماد أية ثورة في زمن سير، والتغلب على الأعداء من غير مقاومة. وختمت كلامي بقولي:

« واني مستعد لتقديم هذه الهدية الصغيرة إلى جلالتيكم، اعترافًا مني بما عمرتني به من الرعاية والعطف العظيمين »

٣ - آراء الملك

وما سمع الملك هذا الحديث، حتى بدت على أساريره أمارات الدهشة والعجب مما سمعه من أسرار هذا المسحوق المدمر. وزاد دهشته أنه لم يكن يدور بخلافه أن حشرة آدمية - غاية في العجز والضعف والحقارة - يمكن أن تتخيل مثل هذه المفزعات العظيمة، فتحدث عن ذلك الحصون وتنسف المدن - في سهولة وطمانينة وثقة إلى ما تقول - ولا يزعجها أن تذكر التدمير وتخريب البلاد والفتك بأهلها، لأنها ترى - في كل هذه الشنع والمذابح التي تنجم عن هذا الاختراع المهلك - شيئًا تافهًا لا قيمة له ولا خطر.

ثم قال لي الملك:

« لست أشك في أن مخترع هذا المسحوق المهلك هو روح شريرٌ خبيثٌ لا ضمير له ولا دين . ولا أرتابُ في أن الشيطانَ عدوُّ الله هو الذي ألهمه أن يخترع هذه المهلكات ! »

٤ - محبة الخير

ثم قال :

« إنني لا أطربُ إلا للاختراعاتِ النافعةِ التي تُفيدُ الجنسَ الإنسانيَّ ، سواءً أذلتْ قوى الطبيعةِ وسخرتها لخيرِ الإنسانِ ، أم عملتْ على رُقْيِ القُنونِ وقدَّمها . وإني لأوثرُ أن أفقدَ ملكي وأنزلَ عن عرشي ، على أن ألبأ إلى استعمالِ هذه الاختراعاتِ المهلكةِ المشؤمةِ . فحذارِ حذارِ أن تكشفَ سرَّ هذا الاختراعِ لأحدٍ من الشعبِ ، فإنك - إن فعلتَ - فليس لك عندي من جزاء - على إذاعةِ هذا السرِّ - إلا القتلُ ! »

...

ولقد عجبتُ أشدَّ العجبِ من إصراره ، وعدمِ تقديره فوائدَ هذا الاختراعِ الذي أمكننا به التغلُّبُ على خصومنا بأيسرِ عناء . بيدَ أن

هذا الملكُ قد تحلَّى بكلِّ الصِّفاتِ المحمودةِ ، وتشبَّعتْ نفسه بالخيرِ والرحمةِ ، فأحبهُ شعبه ، وأعجبَ بفضائله ، وأشادَ بمزاياه ، وأكبرَ له ذكاه وحصافته وحكمته وسعةِ علمه . وكان هذا الملكُ عادلاً محبباً لتقدمِ شعبه ورفعته ، فقدَّسته الرعيةُ كلَّ التقديسِ . ولم يكنْ مثلاً هذا الملكُ ليُسرعَ إلى انتهازِ الفرصةِ السانحةِ لإرهاقِ من يخالفه أو يثورُ عليه ، لأنه لم يكنْ يعنيه أن يُصبحَ سيِّداً مستبداً مُطلقَ التصرفِ والسُّلطانِ في حياةِ رعيتيه وحرِّيَّتهم ، ولكنْ يعنيه أن ينفعهم ويجلبَ لهم السَّعادةَ والرِّفاهيةَ والخيرَ العميمَ ، وإذا كان قد رفضَ الإصغاءَ إلى نصيحتي فإن ذلك لا ينتقصُ من فضله وذكائه ، ولا أحسبُ القارئَ يخطئه في ذلك ، فإن سياسةَ هذه الشعوبِ قائمةٌ على الصَّراحةِ ، وهي لم تُصبحَ - كما هي عندنا - فناً يحتاجُ إلى طولِ الدرسِ والمرانَةِ والخبرةِ ...

ولقد ذكرتُ له ذاتَ يومٍ - في بعضِ حديثي - أن في بلادنا أسفارا ضخمةً كتبها مؤلفوها عن فنِّ الحُكمِ . وأسلوبِ سياسةِ الشعوبِ ، فاستنتجَ من ذلك أنا ضعافُ العقولِ ، صغارُ الأحلامِ ، واعتقدَ أنا أممٌ غارقةٌ في الجهالةِ والأهمجيةِ ، وقال لي :

« إنني أحتقر الدسائس والخيانة والجاسوسية في أعمال الملك والدولة والوزارة، كما أحتقر أن يلجأ الحكام إلى الأسرار الخفية في أعمالهم وأحكامهم . »

ولم يستطع أن يدرك ما أعنيه بأسرار الدولة، وما تنطوي عليه من سياسة، وظن أننا نعني بذلك صغار القضايا، والأحكام التي لا خطر لها. ولقد قال لي، فيما قال :

« إن الإنسان إذا استطاع أن يُنبِت سُنْبِلَتَيْنِ مِنَ التَّمْحِ فِي أَرْضٍ لَا تُنْبِتُ إِلَّا سُنْبَلَةً وَاحِدَةً، أَوْ قَدَرَ عَلَى إنبَاتِ عُودَيْنِ مِنَ العُشْبِ فِي أَرْضٍ لَا تُنْبِتُ إِلَّا عُودًا وَاحِدًا، فهو عندي رجلٌ نافعٌ، جديرٌ بالتقدير والثناء، لأنه استطاع أن يُؤدِّيَ لبلاده وإخوانه خدمةً إنسانيةً عظيمةً، هي أجدي وأعودُ بالفائدة عليهم من كلِّ ما يعمَلُهُ كبارُ الساسةِ، وأساطينُ السياسةِ ! »

٥ - آدابُ المِخالفةِ

أما أدبُ هذا الشعبِ، فهو أدبٌ ضئيلٌ، وليسَ في لُغَتِهِمِ مِنَ الألفاظِ إلا ما يَدُلُّونَ بِهِ عَلَى الأخلاقِ والتاريخِ والشعرِ والرياضةِ، وهم يُجيدونَ هذه العلومَ الأربعةَ إجادَةً تامَّةً. وَلَا يُعْنَوْنَ بِالدُّلُومِ العَلِيَّةِ والفَلْسَفِيَّةِ وما إلى ذلك، وَلَا تتجاوزُ حروفُهُمُ الهِجَائِيَّةُ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا، وقوانينُهُمُ مُجَمَّلَةٌ شَدِيدَةٌ الإيجازِ واضِحَةُ الأداءِ، يَفْهَمُهَا كُلُّ إِنسانٍ بِأَيْسَرِ نَظَرٍ وَأَدْنَى فِكْرٍ. وهم لَا يحتاجونَ إلى شرحِ قانونِهِمِ، فإن لكلِّ جَرِيمةٍ عِقَابًا لَا يَقْبَلُ تَأْوِيلًا وَلَا فِلْسَفَةً. وليسَ يُمَيِّزُهمُ ذكاءٌ نادرٌ.

أما المطابعُ، فقد اهُتَدُوا إليها قَبْلَ عهدِ التاريخِ - كما اهُتَدَى إليها الصينيونُ - ولكنك لَا تجدُ عِنْدَهم مَكْتَباتٍ كَبِيرَةً، فإن مَكْتَبَةَ المَلِكِ - وهي أكبرُ مَكْتَبَةٍ فِي تلكِ البِلادِ - لَا تحوي أَكْثَرَ من ألفِ سِفرٍ. وهي فِي خِزَانَتِها طُولُها ألفُ قَدَمٍ ومِائتا قَدَمٍ. وقد أذِنَ لي فِي أنْ أقرأَ مِنْها ما أَشاءُ. وَكنتُ إِذا أردتُ أنْ أقرأَ كِتابًا، أمرَ جلالتهُ بِوضْعِهِ عَلَى مائِدَةٍ كَبِيرَةٍ، فأقفُ فَوْقَ صَفْحَتِهِ العَظِيمَةِ، وأمشي عَلَيْها ثَماني خُطواتٍ أو

عشرًا - على حسب طول سطورِه - فإذا انتهيتُ من قراءة الصَّفحة ،
رفعتها بِكِلتا يدي لِثِقَلِ حَجْمِها ، وثخانةِ ورقِها .

أما أسلوبُهُم في
الكتابة فهو واضحٌ
سهلٌ ، لا تكلفَ فيه ولا
لبسٌ ، وم لا يُعنونَ
بالإفتانِ في الأداء ، ولا
يلجئون إلى المُترادفاتِ ،



ولا يُغيرون أساليبهم في التعبير ، ولا يزيدون في كتاباتهم لفظًا واحدًا
لا يحتاجُ إليه المعنى . وقد تصفحتُ كثيرًا من كتبهم ، ولا سيَّما كتبُ
التاريخ والأخلاق ، وقرأتُ رسالةً صغيرةً قديمةً - كانت في غرفةِ
الحاضنة - عنوانها :

« رسالة في ضعفِ الجنسِ الإنسانيِّ » ؛ وهذه الرسالةُ ذائعةٌ مشهورةٌ
في تلك البلادِ ، تُقبلُ على قراءتها النساءُ وعامةُ الشعبِ .

٦ - فصلٌ من كتابِ

ولقد شاقني أن أقرأ فصلًا من هذا الكتابِ الذي ألقاهُ أحدُ هؤلاء
العمالقةِ في إظهارِ ضعفِ الجنسِ الإنسانيِّ وعجزِه ؛ فرأيتُ المؤلفَ يدلُّ
فيه على عجزِ الإنسانِ وحقارتهِ - أمامَ سلطانِ الطبيعةِ وجبروتِها ، وقوةِ
الحيواناتِ المفترسةِ وبطشِها - بأنَّ بعضَ الحيواناتِ يفوقه قوةً وسرعةً ،
وبعضها يفوقه ذكاءً ومهارةً وحسنَ نظامٍ .

وقد رأيتُ مؤلفَ الكتابِ يميلُ إلى الحُكمِ بأنَّ الطبيعةَ قد فسدت في
القرونِ الأخيرةِ ، وأن العالمَ سائرًا إلى الضعفِ والانحلالِ ؛ لأنَّ قوانينَ
الطبيعةِ - في زعمه - كانت تقضى بإيجادِ الأجناسِ البشريةِ القويةِ ،
ذاتِ الأجسامِ الضخمةِ والقاماتِ المرتفعةِ ، وكان الناسُ منذُ بدءِ الحياةِ في
القرونِ الغابرةِ أقوىاءَ أصحاءَ ، وكانوا - لقوتِهِم وصحتِهِم - آمينينَ من
الأخطارِ والتغيراتِ الفجائيةِ التي كثيراً ما أودت بنا لضعفِنا وضآلةِ أجسامِنا .
ثم يقولُ : « أما نحنُ فقايةٌ في الضعفِ ، وإن حجرًا من الأجرِ يُلقى
علينا من أعلى منزلٍ - أو يقدفنا به غلامٌ صغيرٌ - لا يلبثُ أن يوديَ

بِحَيَاتِنَا ، وربما غرق أحدنا - لضآلته - في نُهَيْرٍ . « وقد استنتج المؤلفُ من ذلك الضعفِ عدةَ قوانينَ رآها نافعةً للسيرِ في هذه الحياةِ باعْتِدَالٍ .

٧ - حَقَارَةُ الْإِنْسَانِ

أما أنا فقد غرقتُ في بحرٍ من التفكيرِ ، وطافتُ بذهني شتى المعاني والبطاتِ ، حين رأيتُ جميعَ الناسِ يَنْزِعُونَ بطبيعتهم إلى الشكوى من الطبيعةِ ، وَيَعَزُّونَ إليها أكثرَ السيئاتِ والعيوبِ ، وَيَحْمِلُونَ الزمَنَ أوزارَ ما يتألمون منه .

وذكرتُ أن هؤلاء العمالقَةَ - على ما وصلوا إليه ، من ضخامةٍ وقوةٍ - لا يزالون يجدون أنفسهم صغارًا ضعافًا . فكيف بأمثالي من بني الإنسانِ الذين لا يُقاسون إلى هؤلاء المرَدَةِ ؟ ورأيتُ ذلك المؤلفَ يقولُ :

« إن بني الإنسانِ ليسوا إلا حشراتٍ ضئيلةً على وجهِ الأرضِ ، وديدانًا لا خطرَ لها ، وليس الإنسانُ في هذه الدنيا إلا ذرَّةً حقيرةً ، غايةً في الضعفِ والهوانِ . »

فامتلاتُ نفسي حزنًا وأسفا حين قرأتُ هذا الكلامَ ، وقلتُ لنفسي :

« وأسفا علينا ! إذا كان هؤلاء العمالقَةُ الجبابرةُ يرونَ أنفسهم غايةً في الصَّخَامَةِ والضعفِ ، فكيف بنا ولسنا شيئًا مذكورًا بالقياسِ إلى هؤلاء المرَدَةِ ؟ »

...

وقد عرض مؤلفُ الكتابِ للكلامِ في الكبرياءِ والزَّهْوِ ، وأنحى باللَّامَةِ على الناسِ لو لوعهم بالأوصافِ الفارغةِ ، وتهافتهم على أن يوصفوا بألقابِ السُّمُوِّ والعظمةِ ، ورأى أن من المُحزِنِ المؤسِفِ أن يفخرَ إنسانٌ ضعيفٌ - من بني جنسه - بهذه الألقابِ ، وهو لا يزيدُ في طولهِ على مائةٍ وخمسينَ قدمًا ، وأن يُدِلَّ بطولهِ وضخامتهِ ، وهو لا يزالُ قزمًا ضعيفًا . فقلتُ في نفسي : « إذا صدق هذا المؤلفُ في قوله ، فماذا يقولُ أمراؤنا وعظماؤنا إذا قرأوا هذا الكلامَ ؟ وماذا يصنعون ، وهم لا يزيدون في ارتفاعِ قاماتهم - على خمسِ أقدامٍ ويضعُ أصابعَ ، ثم تتطلعُ نفوسهم إلى ألقابِ السُّمُوِّ والعظمةِ ؟ ولستُ أدري لماذا لا ينشدون ألقابَ الضَّخَامَةِ والعرضِ والكثافةِ ؟ ولعل أحدهم يُجيبُ على اعتراضِ بأن السُّمُوَّ والعظمةَ خاصتانِ بالروحِ لا بالجسمِ . فإذا صحَّ قولهم هذا ، فما

بأنهم لا يتخبرون لهم ألقاباً صريحة في أداء هذه المعاني بجلاء ووضوح؟ وما بأنهم لا يقولون: «صاحب الحكمة، وصاحب الذكاء، وصاحب التبصر، وصاحب الكرم، وصاحب الطيبة، وصاحب الضمير» بدل قولهم: «صاحب الرياسة، والعظمة، والفضامة» وما إلى تلك.

يجب أن نعرف بأن تلك الألقاب أجل وأشرف من هذه، وفيها رقة وأطف إذا حيوا بها ممن هم دونهم مقاماً. أما أن يصفوا أنفسهم بالرفعة والسمو والعظمة، وهم على مثل ما ترى من ضعف وضآلة؛ فذلك تناقض مضحك عجيب!

٨ - نظرة عامة

أما علوم أولئك العمالقة في الطب والجراحة والصيدلة، فقد برعوا فيها بمقدار يناسب حاجات البلاد. وأما جيشهم فهو مؤلف من اثنين وثلاثين ألفاً من الفرسان، وهم من التجار والفلاحين، وقوادهم من النبلاء والأعيان. وهم لا يتقاضون على ذلك أجراً، فإن كلاً منهم منصرف إلى عمله، وكل فلاح تحت إمرة أحد الأعيان؛ فإذا جدَّ الجدُّ، جندَّ منهم جيش يبلغ هذا العدد.

وقد عجبت لماذا يُعنى الملك بتدريب هذا الجيش على الحرب وهو آمن من غارات الأعداء. ولكنني - بعد أن درست تاريخهم - علمت أن هذا الشعب لم ينل - فيما مضى من الزمن - ممّا أُصيب به غيره من الشعوب الأخرى، أعني الحرب الأهلية، وتنازع الأعيان والنبلاء على الحكم، وتطلُّع الشعب إلى الحرية، ورغبة الملك في الاستئثار بالحكم والسلطان.

•••

على أن قوانين المملكة الحكيمة، وتقديس الشعب لملكه القائم قضيًا على هذه الفتن الداخلية، وأصبحت البلاد في أمان من المنازعات المقلقة والاضطرابات العنيفة.

البلاد ، لأنسل ذرية من أبنائي ، توضع في الأقطاص كما توضع المصافير ،
ثم تباع بعدئذ في أنحاء المملكة للسرارة والأعيان ، كما تباع الطرْفُ
والحيوانات الصغيرة الغريبة ! ولقد كانوا - في الحقيقة - باملونني أحسن
معاملة ، وقد اختاروني نديماً للملك والملكة ، وكنت في هذه البلاد
بهجة العاشية والسرارة . ولكنني كنت أشعر أن هذه الحفاوة كلها لا تُرضي
نفس رجل يشعر أنه إنسان مستقل حرٌّ له كرامة ، ولم أكن لأنسى
أفلاذ كبدى وزوجتى بعد أن تركتهم في بيتى التانى البعيد . وكان أكبر
أمانى أن أعيش في شعب يماثلنى وأماثلهُ ، وأجد فيه أصدقاء وخلصاء من
أندادى وأقرانى ، وأظفر بحرّيتى كاملة في التجوال - في الطرق والحقول -
بلا رهبة ولا حذر . ولا كذلك كنت في تلك البلاد التي ظلمت أتوقع فيها
- بين لحظة وأخرى - أن يسحقني أحد أبنائها المماثلة بقدمه ، كما
نشق الحشرة الوضيعة الضئيلة ، دون أن نشعر بمكانها من الوجود !

٢ - مزعجات « برُبدنجاج »

ولقد كان من الميسور المحتمل أن أقضى حياتى في تلك البلاد ، لو لا

الفصل السابع

١ - ذكريات الوطن

كان يدور بخيالى دائماً شعورٌ خفى ، يوحى إلى أنى سأحصل - في
يوم من الأيام - على حرّيتى ، وأعود إلى وطنى . ولم أكن أعرف ما هى
الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم اللذيذ ، ولقد طالما فكرت في ذلك ، فلم أعد
من تفكيرى بطائل ، وأخفقت في الاهتداء إلى تدير تلوح لى فيه أية بارقة
من بوارق الأمل في الخلاص من تلك البلاد .

ولقد كنت على ثقة من انقطاع هذه الجهة التي نزلت عن بقية العالم .
كما كنت على يقين من أن أول سفينة اقتربت من تلك البلاد ، هى
سفينة التي غرقت - فيما أعتقد - بالقرب منها .

وقد أصدر الملك أمره بمراقبة أى سفينة تدنو من شواطئ بلاده ،
وإحضار من فيها من الناس إليه ، لعله يعثر - من بينهم - على زوجة
صالحة لى . أما أنا فقد كنت أؤثر أن أموت على أن أتزوج في تلك

قماةً وقصرُ قماةٍ ، وما جرُّهُ ذلكُ عليَّ من الأخطارِ والمخاوفِ التي
يضيقُ عنها الوصفُ ، والتي لا أعدُّها ، بل أعدُّ منها ما حدث لي ذاتَ يومٍ
مع قزمِ الملكةِ ، قبلَ أنْ يحلَّ عليه غضبُها وتقمُّتها . فقد التقيتُ به
في حديقةِ القصرِ الملكيِّ ، بالقربِ من شجرةِ تفاحٍ صغيرةٍ . وما وضعتني
الحاضنةُ على الأرضِ ، حتى أقبلَ عليَّ ذلكُ الخيِّثُ يحيني ساخرًا من
قصرِ قماةٍ ؛ فقابلتُ سُخريتهُ بمثلِها . فأسرَّها في نفسه ؛ وما بعدتِ
الحاضنةُ عني قليلًا حتى انتَهَرَ القزمُ الخيِّثُ تلكَ الفرصةَ ، وهزَّ
عُصنًا من أغصانِ تلكَ الشجرةِ ؛ فتناثرَ تفاحُه على الأرضِ ، وسقطتْ
على عشرِ تفاحاتٍ - في مثلِ حُجومِ البراميلِ - فكادت تقتلني قتلاً .
ولكنني تجللتُ أمامه ، وعدتُ على نفسي باللائمةِ ، وعزمتُ على ألا
أمازِحه بعد ذلكَ اليومِ .

• • •

وتساقطَ البردُ - ذاتَ يومٍ - وأنا جالسٌ في الحديقةِ ، وكانتِ
الحاضنةُ تحادثُ إحدى رفيقاتيها ؛ فهويتُ إلى الأرضِ وأنا بينَ الحياةِ
والموتِ . ولولا أنهم أسرعوا بنقلي إلى الفراشِ لأصبحتُ في عدادِ

الهالكين . على أنني تماثلتُ من المرضِ بعدَ ثمانيةِ أيامٍ .
وقد كان كلُّ شيءٍ - كما أسلفتُ - مناسبًا سكانَ هذه البلادِ . وقد
وزنتُ حبةً واحدةً من حباتِ البردِ المتساقطةِ ، فرأيتها أكبرَ من حباتِ
البردِ التي نراها عندنا ألفاً وثمانمائةَ مرةً .

٣ - في فمِ كلبٍ



وما أنسَ لا أنسَ
يومَ تركتني الحاضنةُ
في الحديقةِ لأتزره
وحددي ، وأخلو إلى
نفسِي ؛ وكانت تأنسُ
مني - في أغلبِ
الأحايين - ميلاً إلى
العزلةِ والتفكيرِ .
وما تركتني

في الحديقة - بعد أن وثقت أنها قد خلفتني في مكان أمين - حتى لقيتني
 كلب صغير . وما شتم رائحتي - من بعيد - حتى أسرع إلي ،
 فأخذني في فيه ، وجري مسرعاً إلى صاحبه البستاني ، ووضعني أمامه ،
 ووقف يبصّب (يحرك ذنبه) . وكان البستاني يعرفني ، فأسرع
 إلي يلاطفني ويواسيني ، ويسألني : كيف أجدني ؟ وهل أصابني سوء ؟ ولم
 يكن في قدرتي أن أجيبه - وقتئذ - قد أغمى علي ، ولم أفق من غشيتي
 إلا بعد دقائق . وما اطمان على سلامتي حتى حملني مترقفاً إلى حيث
 كنت ، فرأيت الحاضنة تبحث عني وتناديني ، وقد امتلأت نفسها حزناً
 وألماً حين عادت إلى مكاني فلم تجدني فيه . فلما حدثها البستاني بما جرى لي
 راحت تنهال عليه لوماً وتقريعاً لما سببه لي كلبه من الإزعاج والألم .
 وقد قبلت عذر البستاني - بعد حوار طويل - ووعده بأن تكتم
 الحادث المشؤم عن الملكة ، حتى لا تنزل به عقابها الصارم !

٤ - خواطر مؤلمة

وقد آلت الحاضنة على نفسها ألا تقارني لحظة واحدة حتى لا أتعرض

لمكروه بعد ذلك اليوم . وقد طالما خشيت منها هذا التضييق الشديد على
 حرّيتي ، فكتمتها أكثر ما وقع لي من الحوادث . ولست أنسى أن جعلاً
 (وهو صنف من الخنافس) حاول أن يبتلعني ، فلم ينقذني منه إلا حضور
 بدهي ؛ إذ أسرع إلى شجرة متدلّية أغصانها على حائط الحديقة ،
 فاختميت بها ، وأخرجت مدّتي ، لأدفع أذاه عن نفسي .

وما أنسى أنني هويت - ذات يوم - في جحر جرذ (وهو نوع من
 الفأر) ، فوسّعتني إلى عنقي ، ولم أخرج منه إلا بعد عناء شديد .

وكنت أفكر في وطني - ذات يوم - وإني لغارق في ذكرياتي
 وخواطري ، إذ اعترضتني في طريق قشرة شجرة ، فكادت تقضي علي .

وكانت الطيور تهزأ بي - لضالتي وقماتي - ولا تخشاني . وقد بلغ من
 استخفافها بي ، أن عصفوراً وقحاً خطف من يدي قطعة من الحلوى كبت
 آكلها ! وكنت إذا حاولت أن أدنو من تلك الطيور لأقبض عليها انفتت
 إلي ، وحرّكت مناقيرها مُنذرةً متوعدةً إني أن تقتك بي ، ثم سارت في
 طريقها وادعةً تلتقط ما شاءت من الدود والحَب .

على أن الله - سبحانه - قد كتب لي الخلاص من هذه البلاد بسرعة عجيبة، ويسرت لي عنايته أن أعود إلى وطني بطريقة لا تخطر على بال، كما سيرى القارئ فيما بعد.

لقد مضى على عامين، وأنا في تلك البلاد. وفي مُستهل العام الثالث خرجت مع الحاضنة والحاشية - في ضجة جلالتي الملك والملكة - إلى سياحة في الحدود الجنوبية للمملكة. وقد حملوني في العربة التي كانوا يُعدونها لأسفاري، وهي حجرة ثلاثية كل الملامعة؛ عرضها اثنا عشرة قدماً. وقد طلبت إليهم أن يشدوني بأربعة خيوط من الحرير إلى أركان الحجرة الأربعة؛ حتى لا أشعر باهتزاز واضطراب في أثناء سير الجواد، الذي كان يمتطيه أحد الخدم ويضع علبتي أمامه محافظةً عليّ.

وقد طلبت إلى التجار أن يصنع لي ثقباً صغيراً في سطح علبتي بمقدار قدمٍ مربعة؛ لينفذ إلى الهواء منه، وليتسنى لي أن أفتح وأغلقه بمصاى كلما أردت.

وما وصلنا إلى نهاية سياحتنا، حتى رأى الملك أن يقضى بضعة أيامٍ متزهاً في مدينة من مدن بلاده، تقع على مسافة ثمانية عشر ميلاً من شاطئ البحر. ولقد جهدتني هذه السياحة، وجهدت معي الحاضنة. وقد أصبت بزكامٍ خفيف، كما انخرقت صيحة الحاضنة المسكينة؛ فقد كانت مضطرة للبقاء إلى جانبي، والسهر على راحتي، والعناية بأمرى دائماً. واشتد شوقي إلى رؤية البحر؛ فظاهرت بأن وطأة المرض قد اشتدت بي، ولم أقصد بذلك إلا أن يؤذن لي باستنشاق هواء البحر مع خادم كانوا يعهدون إليه بأمرى في بعض الأحيان، وكنت آنس إليه، وأراح إلى خلقه.

ولست أنسى معارضة الحاضنة في ذلك، وكيف تألمت لفراق أشد الألم، ولم ترض بذلك إلا بعد أن أوصت الخادم بي، وألحّت عليه في العناية بأمرى. ولما وقفنا للوداع همت الدموع من عينيها، وكأنما أحس قلبها شراً مستطيراً، أو لعلها شعرت في أعماق نفسها أنها لن تراني بعد ذلك اليوم.

« وللنفس حالاتٌ تُريها كأنها تُشاهدُ فيها كلَّ غيبٍ ستشهدُ »

٧ - على شاطئ البحر

ثم حملني الخادمُ في عُلبتي ، وسار بي نحوَ نصفِ ميلٍ ، بعيداً عن القصرِ الملكيِّ المشيّدِ في تلكِ المدينةِ ، ومضى صوبَ الصُّخورِ على شاطئِ البحرِ . فطلبتُ إليه أن يضعني على الأرضِ ، ثم فتحتُ إحدى نافذتي ، وأخذتُ أُجِلُّ بصرِي في أرجاءِ البحرِ بعينِ مُفروزةٍ بالدُّموعِ ، ونفسي كئيبيةٍ محزونةٍ . ثم رأيتُني في حاجةٍ إلى النومِ ؛ فطلبتُ إلى الخادمِ أن يُغلقَ النافذةَ حتى لا أُصابَ ببرْدٍ . وقد استسلمتُ لنومٍ عميقٍ ، ولستُ أدري



ماذا صنع الخادمُ بعد ذلك . ولعله قد اطمأنَّ إلى أنني في

مكانٍ أمينٍ ، ووثقَ بأُني لن أُصابَ بسوءٍ ؛ فراح يتسلَّقُ الصُّخورَ باحثاً - في أوْكارِ الطيورِ - عن أفرأخها وبَيْضها ، وقد كنتُ رأيتُهُ من خلالِ نافذتي يفعلُ ذلكَ قبلَ أنْ أنامَ .

٨ - في أجوازِ الفضاء

ثم استيقظتُ بغتةً ، وقد شعرتُ أن عُلبتي تهتزُّ اهتزازاً عنيفاً ، وترتفعُ إلى علوِّ شاهقٍ مُندفعةً إلى الأمامِ بسرعةٍ لا مثيلَ لها . وشعرتُ أن الرِّجَّةَ الأولى كادت تُقذفُ بي من العُلبَةِ التي كنتُ فيها ، ثم خضتِ الحركةُ قليلاً قليلاً : فصرختُ بأعلى صوتي ، ولكنَّ صراخي ذهبَ أذراجَ الرِّيحِ . ونظرتُ من خلالِ نافذتي ، فلم أرَ غيرَ السُّحبِ - السُّحبِ وحدها - وسمعتُ ضجَّةً مفرَّعةً فوق رأسي ، تُماثلُ خفقَ الأجنحةِ . وثمةَ أدركتُ حرجَ مركزي ، وعلمتُ مَدَى الخطرِ الذي أنا مستهدفٌ له . وألقيتُ في رُوعي أن نَسراً كبيراً - من نُسورِ تلكِ البلادِ - قد حملَ العُلبَةَ بِمِنقارِهِ . وهو يوشِكُ أن يُلقِيَ بها من حاليِّ إلى الصُّخورِ - كما تُلقَى السُّلحفاةُ قشرةً من فمِها إلى الأرضِ - ثم يفترسني بعد ذلك . ولقد كنتُ أعرفُ هذا الطائرَ ، وما أُوهِبه اللهُ من حاسةِ الشمِّ القويةِ التي تهديه إلى فريسته على مسافةٍ بعيدةٍ ؛ فأدركتُ أنه اهتدى إلىَّ ، مع أنني كنتُ مختفياً عن ناظرِهِ تحتَ ألواحِ مِنَ الخشبِ ، نخانةً كلَّ لَوْحٍ منها إصبعانٍ . وبعدَ

وقتٍ قصيرٍ شعرتُ أن خَفَقَاتِ جَنَاحِيهِ بدأتُ تزدادُ وتشدُّ ، ثم سمعتُ

ضرباتٍ عنيفةً ، ورأيتُ عُلبتي

تَرْتَظِمُ - في عُنفٍ وهدية -

فأدركتُ أنني هويتُ - في أقلِّ

من دقيقةٍ - بسرعةٍ لا تمرُّ

بخاطرٍ .

وشعرتُ - في أثناء

سقوطي - بهزةٍ عنيفةٍ رنَّ دويُّها

في أذني ؛ فخيَّلَ إليَّ أنني أسمعُ

دويًّا أشدَّ من دويِّ الشلالِ ، ثم أصبحتُ في ظلامٍ حالكٍ مُدَّةَ دقيقةٍ

أخرى . ثم ارتفعتُ عُلبتي ثانيةً ؛ فرأيتُ ضوءَ النهارِ من أعلى نافذتي ؛

فأدركتُ - حينئذٍ - أنني قد هويتُ إلى الحجرِ ، وأنَّ عُلبتي سابحةٌ

تتقاذفها الأمواجُ المصطنعيةُ ، كأنَّها ريشةٌ معلقةٌ في مهبِّ ريحٍ عاصفةٍ

هوجاء .

ودارَ بخيالي أن تسرين أو ثلاثةً قد تعقبا - فيما أظنُّ - التسر الذي

كان يحمِلُ عُلبتي ، فغلباه على أمره ، وشغلناه بالدِّفاعِ عن نفسه ، فاضطرَّ إلى

تركي ، ولعلَّهما كانا يُحاولانِ اختطافي منه . فلما هويتُ إلى البحرِ كادت

عُلبتي تتفكَّكُ ، لولا الصِّفائِحُ الحديديةُ التي كانت لها خيرُ سِباحٍ ، فحفظتُ

توازنها ، وحالتُ دونَ تكسُّرها وتَحطُّمِها بعدَ سقوطها من ذلك الارتفاعِ

الشاهقِ .

آه ! لو دِدْتُ - حينئذٍ - أن عزيزي الحاضنة المخلصة كانت إلى

جَنبي لتساعدني على الخلاصِ من هذا الحادثِ المفاجئِ . ولم يُنسيني ما أنا

فيه من شقاءٍ ذِكْرِي هذه الفتاة المخلصة ، وأسنى على فراقها ، وعلى

ما ينتابها من الحزنِ العميقِ حينَ تفتقدني فلا تراني أمامها !

وذكرتُ حُزنَ الملكةِ على فراقِي ؛ فتأثرتُ لذلك أشدَّ التأثُرِ . وإني

لعلِّي يقينٍ من أن قليلين جدًّا من السائحين قد وُجدوا في مثلِ هذا المأزقِ

الحرجِ الذي وُجدتُ فيه . ولقد كنتُ أتوقَّعُ أن تتحطمَ عُلبتي بين لحظةٍ

وأخرى ، أو تنقلبَ بي - على الأقلِّ - إذا عنفتُ بها الريحُ ، أو طغى

عليها المَوجُ .

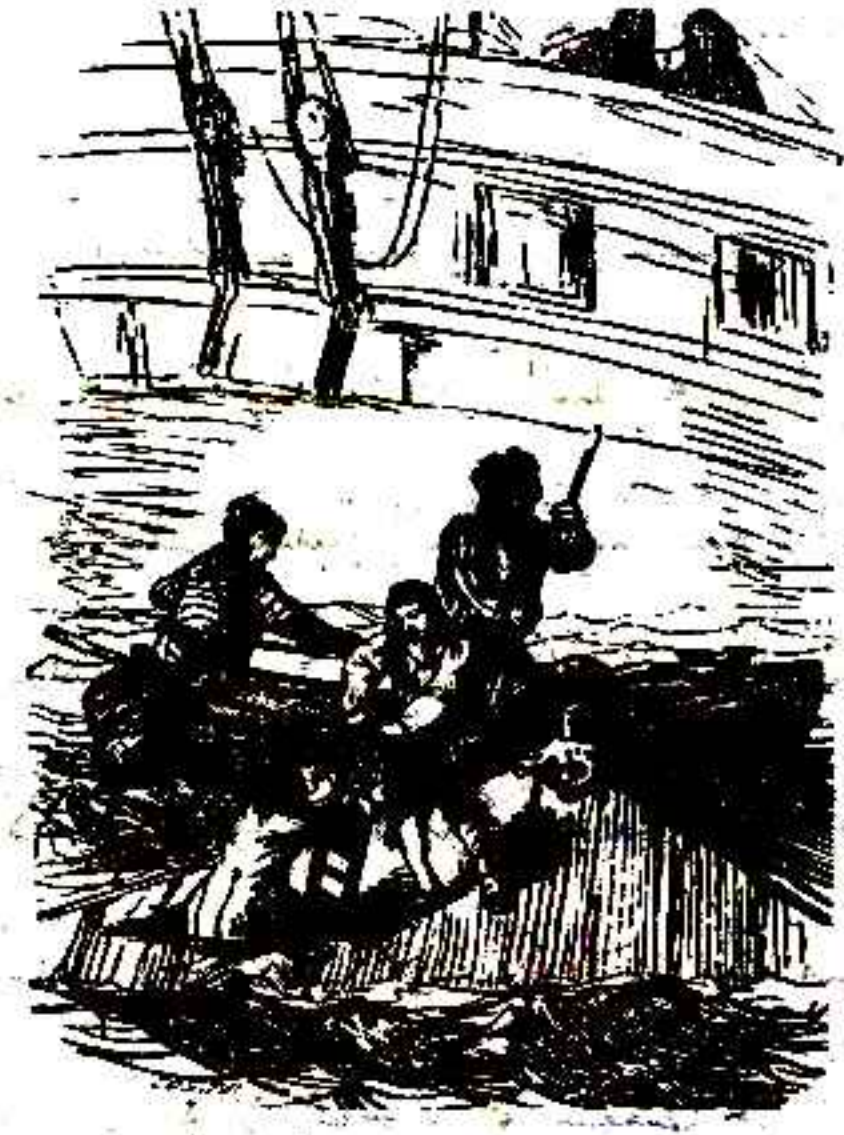
ثم شددتُ مندبلي إلى عصاي ، وأخرجته من الثغرة ، وحررته في الهواء عدة مرات ؛ لعل السفينة - التي أتخيلها قريبة مني - تراه فتعرف أن في تلك العلبة إنساناً تيساً ينبغي النوث والنجاة . وكذتُ أينس من الخلاص وأكف عن النداء ، ولكنني أحسستُ أن علبتي تتقدم إلى الأمام ؛ فهاودني الأمل . وبعد ساعة تقريباً شعرتُ أنها قد صدمتُ بشيء صلب ، فخشيتُ أن تكون قد صدمتُ بصخرة في طريقها ؛ فاستوأتُ على الرغب والإنزاج . ثم سمعتُ حركة واضحة - فوق سطح علبتي - وأحسستُ أن حبلاً قويًا يجرُّها ، وهي ترتفع شيئاً فشيئاً من مكانها نحو ثلاثة أقدام . فرفعتُ عصاي ومندبلي ملوَّحاً بهما في الفضاء ، وصرختُ - بأعلى صوتي - طالباً النوث والنجدة ، حتى بَحَّ صوتي ؛ فسمعتُ هتافاً يتردد ، فامتلاً قلبي سروراً ليس في قدرتي أن أصفه للقارئ ، وليس في قدرة إنسان أن يتمثل له هذا السرور إلا إذا تخيل نفسه مكاني وقد سمعتُ - بعد ذلك - خفق أقدام على السطح ، وطرق أذني

ولقد كسرتُ لوحاً زجاجياً من ألواح النافذة - غير عامدٍ - وأصبحتُ نهبَ الحوادث . ولم يبق لي أملٌ في النجاة لولا تلك العمدة الحديدية ، المثبتة بها النافذة من الخارج . ورأيتُ الماء ينفذُ إلى علبتي من خلال بعض الشقوق ، فبذلتُ قصارى جهدي في سد كل ثغرة وجدتها . ولشدة ما أسفتُ على أن لم يكن في وُسي أن أرفع سطح علبتي لأجلس فوقها ، بدلاً من بقائي في داخلها كأنني محبوسٌ في قاع سفينة . وبنى لغارق في هذه التأملات والمخاوف ، إذ خيل إلي أنني أسمع حركة بالقرب من علبتي ، ثم خيل إلي أن العلبة تُجرُّ إلى ناحية بعينها . وكنتُ - بين وقتٍ وآخر - أشعرُ بأن الأمواج ترتفع أحياناً إلى أعلى نافذتي فأصبح في ظلامٍ حالك . فقرر في نفسي أن أناساً قريبين مني يحاولون إقاضي مما أنا فيه ؛ فوهتُ على كرسي فوق كرسي . ورفعتُ رأسي إلى ثغرة صغيرة في سطح علبتي ، وصيحتُ طالباً النجدة بكل لغة أعرفها .

صوتُ رجلٍ يناديني بِلُغَتِي مِنَ الثُّغْرَةِ قَائِلًا : « هل هنا أحدٌ ؟ »

فأجبتُه من فوري : « نعم
- بكلِّ أسفٍ - يا سيدي ،
هنا إنسانٌ تعسٌّ مسكينٌ ، أسلمتهُ
جدُّه العائِرُ إلى هذه الحالِ
المجزرةِ ، وهو يضرَعُ إليك أن
تُنقِذه من هذا السُّجنِ ! »
فأجابني الصوتُ :

« لا عليك يا أخي ، فاطمئنْ ،



قد شددنا صُدوقك إلينا ، واستدعينا النِّجارَ لفتحِه ، وإخراجِك منه . »

فقلتُ ، وقد نسيتُ أنني لستُ في بلادِ العَمالِقَةِ الذين يحملون هذه

الحِجْرَةَ بِاصْبِعِ واحِدَةٍ :

« لا حاجةَ إلى هذا العناءِ كلِّه ؛ فإنَّ ذلكَ يَستَفرِقُ وقتًا طويلًا . »

فليَتقدِّمَ أحدُكم ، وليَضَعِ إصْبَعَهُ في العِجَلِ ؛ فيرفعَ العُلْبَةَ مِنَ البَحْرِ

إلى السَّفِينَةِ بلا عناءٍ . »

وما سَمِعُوا ذلكَ ، حتى ضَحِكُوا مِمَّا سَمِعُوا ، وقد خَبِلَ إليهمُ أنني مَعْتَوَةٌ
لا أفتَهُ ما أقولُ !

وما كنتُ أَحسَبُ - حينئذٍ - أنني بينَ رجالٍ من أبناءِ جِنْسِي في مِثْلِ
ضالَّةِ جِسمِي وقِصرِ قامتي . ثم جاءَ النِّجارُ - بعدَ دقائقَ قليلةٍ - ففتحَ
ثُغْرَةَ في أعلى العُلْبَةِ ، عرضها ثلاثةُ أقدامٍ ، وأدلى إلى بِلْمٍ صغيرٍ ،
فصعدتُ فيه . وما وَصَلْتُ إلى السَّفِينَةِ حتى كان الضعفُ والإعياءُ قد
بلغا بي كلَّ مبلغٍ . وقد دهشَ الملاحونَ جميعًا من رؤيتي ، وسألوني عدَّةَ
أسئلةٍ ؛ فلم أقو - لِضَعْفِي - على إجابَتِهِم عن سؤالٍ واحدٍ .

١١ - نومٌ مُضطربٌ

ولشدَّ ما أدهشني قِصرُ قاماتهمُ ، وكانت عيناى قد تعودتا رؤيةَ العَمالِقَةِ ،
وما يحيطُ بهم من الأشياءِ الضَّخْمَةِ العَظِيمَةِ . وقد أدركَ الرُّبَّانُ - بذكائه -
ما أنا عليه من الضعفِ ؛ فأدخلني حُجْرَتَهُ ، وحملني إلى سريره لِأستريحَ مما
أنا فيه ، فأخبرتهُ - قبلَ أن أُغْمِضَ عيني - أن في عُلْبَتِي اثنا عشرَ وثيابةً
فاخرةً من الحريرِ والقطنِ ، ورجوتُ منه أن يأمرَ أحدَ رجالِهِ بنقلِ ما في

عُلبتي من الأثاث . فعجبَ الرُّبَّانُ كيفَ أُسِّمِي تلكَ الحُجْرَةَ الواسعةَ
عُلبَةً صغيرةً ، وحَسِبَنِي أَهْدِي وَلَا أَعِي مَا أَقُولُ .

على أَنَّهُ جاراني في الكلامِ ، ووعدني بتحقيقِ ما أَرَدْتُ ، لِيُطْمَئِنِّي
وَيُرْضِيَنِي ، ثُمَّ أَرْسَلَ رِجَالَهُ لِاحْضَارِ العُلبَةِ .

أما أَنَا فاستسلمتُ لِنَوْمٍ مُضْطَرِبٍ بضعَ ساعاتٍ ، وظَلِمْتُ أَحْلُمُ ببلادِ
العماقَةِ التي تركتها ، ويتمثلُ لي الخَطَرُ الذي كنتُ مُستَهْدِفًا له . فلما أَفَقْتُ
من نَوْمِي وجدتُني مستريحًا نشيطًا ، وكانتِ السَّاعَةُ الثامنةُ مساءً ؛ فأعدتُ لي
الرُّبَّانُ طعامَ العشاءِ بكرمٍ وسَخاءٍ ، ولكنه عَجِبَ حينَ رَأَى عيني زَائِفَتَيْنِ !

١٢ - كيف اهتدوا إلى « جِلْفَر »

ولَمَّا خَلَا بِي الرُّبَّانُ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِ قِصَّتِي ، وكيفَ كنتُ في هذا
المكانِ ؟ ومنَ وضعني في الصندوقِ ؟ وقد أَخبرني أَنَّهُ رآه من بعيدٍ في
وقتِ الظهرِ - حينَ كانَ ينظرُ بِمِنْظَارِهِ - فحسبِهِ زورقًا صغيرًا ، فحوَّلَ
سفينتَهُ إِلَيهِ حتى أَقْتَرَبَ مِنْهُ ، وَأرسلَ زورقًا ليتعرَّفَ حقيقتهُ ، فعادَ إِلَيهِ رِجَالُهُ
مَدْعُورِينَ ، وَأخبروه أَنَّهُم رَأَوْا يَتِّعَانِي مَاءً ؛ فضحك من بلاهتهم ، واستقلَّ

الزورقَ بنفسِهِ ، ودارَ حولَ الصُّنْدُوقِ عدةَ مراتٍ ، فرأى نافذتهُ ، فلم يَسْعَهُ
إِلَّا أَنْ يَأْمَرَ مَلاحِي سفينتِهِ أَنْ يَجْدِفُوا حتى أَقْتَرَبُوا مِنْهُ ، وربطَ حبلًا في
أحدِ أَسْيَاحِ النافذَةِ ، ونفَّهَ حولَ العُلبَةِ . وقد رَأَى عَصَايَ - وفي طرفِهَا
المِنْدِيلُ - فأيقنَ أَنَّ أحدَ التُّعَسَاءِ المَسَاكِينِ قد أُلتِقِيَ في داخلِ هَذَا
الصندوقِ سجينًا .

فسأَلتُهُ : هلَ رَأَى طائرًا كبيرًا في الفِضاءِ حينَ رَأَى ؟ فقالَ لي متعجبًا :
« لقد كنتُ أَتحدَّثُ إلى أَصحابِي في ذلكَ وَأنتَ نائمٌ ؛ فذكرَ لي
أحدُهُم أَنَّهُ رَأَى ثلاثةَ نُسُورٍ تطيرُ في الفِضاءِ - صَوْبَ الشَّمالِ - على
ارتفاعٍ عظيمٍ . »

ولم يعرفِ الرُّبَّانُ ماذا عَنَيْتُ بهذا السؤالِ .

١٣ - شُكُوكُ الرُّبَّانِ

ثم سألتُ الرُّبَّانَ :

« كم يَبِيننا وبينَ اليَابِسَةِ ؟ »

فقالَ لي : « إنَّ المَسافةَ التي يَبِيننا وبينَ الأَرْضِ تَبْلُغُ نحوَ مائةِ مِيلٍ . »
قلتُ له :

« لا أظنُّ إلا أن المسافة نصفُ ذلك القدرِ ؛ فقد غادرتُ البلادَ التي كنتُ فيها منذُ ساعتينِ قبلَ أن أهوىَ إلى البحرِ . »
 فحسبَ الرُّبانُ أنني قد جُننتُ ، وظنَّ أنني أهدي ، وأن رأسي مضطربٌ
 مما لقيته من الهولِ ، وأشار على أن أنامَ في حُجرتِهِ . فأثبتُّ له أنني في غير
 حاجةٍ إلى النومِ ، وأني قد استعدتُ قوايَ بعد أن نمتُ وأكلتُ ، وأني
 واعيٌ مثبتُّ مما أقولُ .

فنظرَ إلى مُعبِّسًا ، وقال لي ، في لهجةِ الحازمِ الجادِّ في قوله : « أرجو أن
 تُكاشفني بحقيقةِ أمرِكَ ، بلا مُواربةٍ ، ما دمتُ واعيًّا مثبتًّا مما تقولُ . كما
 أرجو أن تُفضيَ إليَّ بالجرِمةِ التي ارتكبتها ، فاستحقتَ عليها العقابَ . »
 ولعله ظنَّ أن أحدَ الملوكِ قد أمرَ بوضعي في هذا الصُّندوقِ ، وإلقائي
 في البحرِ عقابًا لي على جُرمِ اقترافته ، كما يفعلُ بالمجرمينَ في بعضِ
 البلدانِ ، إذ يُركون تحتَ رحمةِ الأمواجِ الهائجةِ في سفينةٍ من غيرِ شراعٍ
 ولا زادٍ . وأظهر لي أَلَمَهُ وامْتِعاضَهُ من أن يُوهيَ في سفينتهِ أحدَ الأشرارِ ،
 ولكنه أقسمَ لي إنه لن يمسيَ بسوءٍ إذا صدقتهُ حقيقةُ أمرِي ، وإنه
 سينتلي سألما في أولِ بليدٍ يمرُّ به في طريقه .

وَحَتَمَ كَلَامَهُ بقوله : « لقد حامتِ الشُّبهُ حولك ، وزادها عندي
 ما سمعتهُ منك من الهديانِ الجنونيِّ الذي كنتَ تتخبطُ فيه ، قُتسَمي
 الحُجْرَةَ الكِيرةَ عُلْبَةً صغيرةً ، وقد رأيتُ عينيك زائغتينِ لا يكادُ يقرُّ
 لهما قرارٌ ، ورأيتُك تنظرُ فيما حولك نظرةَ القَلِقِ الحائرِ المُضطربِ . »

١٤ - اقتناعُ الرُّبانِ

فراجوتُ منه أن يريثَ قليلاً في حُكمِهِ حتى يسمعَ قصتي كلها . ثم
 رويتهُ له - في أمانتهِ ودقَّةِ - كلَّ ما حدث لي منذُ تركتُ بلادِي في رحلتي
 الأخيرةِ ، إلى أن تلاقينا في تلكِ السفينةِ .

ولما كانتِ الحقيقةُ تُشقُّ طريقها إلى العقولِ المُدرِكةِ الصحيحةِ ؛
 ارتاحَ الرجلُ الذكيُّ الكيسُّ (الدقيقُ الإحساسِ) إلى سلامةِ سريري ،
 وصفاءِ نفسي وإخلاصي ، وزاده اقتناعاً - بما قلتُ - ما رآه في صُندوقِ
 من الطُّرفِ والتُّحفِ التي أتيتُ بها من تلكِ البلادِ .

وكان بين هذه التُّحفِ المُشطُ الذي صنعتهُ من شعراتِ لحيَةِ الملكِ .
 وقد أريتُ الرُّبانَ مُشطاً آخرَ كنتُ قد صنعتُ مَقْبِضَهُ من ظفرِ إبهامِ

الملك ، كما أريتُهُ إضمامةً من الأبر والذبابيس طول الواحدة منها قدم ونصف قدم ، وخاتمًا من الذهب أهدتهُ إلى الملكة ذات يوم - بعد أن نزعتهُ من بنصرها - ووضعتهُ قلادةً في عنقي .

وزجوتُ من الربان أن يقبل مني هذا الخاتم هديةً إليه - عرفانا بمروءته وتفضله عليّ - فأبى أن يقبل عليّ صنيعةً أجرًا . ثم أريتُهُ السروال الذي ألبسه - وهو مصنوعٌ من جلدِ فأرة - فوثق الربان بما قلتُ ،



وارتاح لسمع قصتي ، ولم يُنكر عليّ شيئًا مما ذكرتهُ له . وقد أَلحَّ عليّ في الرجاء أن أثبت هذه الوقائع كلها في كتابٍ وأذيعه بين الناس ؛ فقلتُ له : « إن الخزائن والمكتبات غاصّةٌ بأسفار السائحين ورحلاتهم ، وإنني

أخشى أن يرتاب بعضُ الناس في شيء مما أكتبه ، أو يحسبه روايةً خياليةً أو تليفًا لا حقيقة له . على أنني لا أرى في هذا الكتاب - إذا أذعته - إلا وصفًا صادقًا لما رأيتُهُ من نباتٍ وحيوانٍ وقاليدٍ وأخلاقٍ ، وما أحسبُ أن شيئًا من ذلك كله يستحقُّ عناءَ كتابته . ثم شكرتُ للربان حسنَ رأيه فيّ .

١٥ - ملاحظاتُ الربان

وقد عجبَ الربانُ أشدَّ العجبِ حين رآني لا أتكلمُ معه إلا بأعلى صوتي ، وسألني عن السرِّ في ذلك - وقد علَّلهُ بأن ملكَ العمالقة ومليكتهم أصمان - فقلتُ له :

« لقد ألفتُ الكلامَ بصوتٍ مرتفعٍ منذُ عامين ، وقد أدهشني ما سمعتهُ من أصواتِكُم الخافتة ، بعد أن ألفتُ أذناي أن تسمعا أصواتًا مرتفعةً كالرعدِ . وكنتُ إذا تكلمتُ في تلك البلاد - مع أحدٍ من أهلها - خيلُ إليّ أنني أخاطبُ رجلًا يُطلُّ من فوقِ مئذنةٍ . وكثيرًا ما وضعوني فوقِ مائدةٍ عاليةٍ ، أو رفعوني بأيديهم ؛ حتى يتبينوا ما أقولُ . ولشدَّ ما عجبتُ

حينَ وقتُ بينكمُ فرأيتُ أماميَ عدَّةَ رجالٍ غايةً في الصُّغرِ ، بعدَ أن تَعَوَّدتُ
عيناىَ أن تَربىَ ضِحامَ الأشياءِ التي كانت تُشعِرُنِي بِحَقَارَةِ نَفْسِي دَائِمًا .
ولقد كاشفَنِى الرُّبَّانُ بأنه قد لاحظَ - حينَ كنتُ أَتَعَشَّى على المائدةِ -
أننى كنتُ زائغَ البَصَرِ ، أنظرُ إلى كلِّ شىءٍ في دهشةٍ وحيِّرةٍ ، وتَلوِّحُ على
أسارىِ وجهي رغبةٌ شديدةٌ في الضَّحِكِ ، ولكننى كنتُ أُحْبِسُ عَوَاطِفِي
حَبْسًا حَتَّى لَا أَقْبِهَةَ ضاحِكًا . وقد كاشفَنِى الرُّبَّانُ بأنه كان يَعْزُو ذلكَ إلى
اِخْتِلَالِ فِي الْمَخِّ .

فشرحتُ له عُذْرِي فِي ذلكَ ، وكيف أدهشنى ما رأيتُه من صِغَرِ المائدةِ ،
وضآلَةِ ما عليها من الصُّحُوفِ التي لَا يَزِيدُ حَجْمُهَا على حَجْمِ قِطْعَةِ تَقْدِ
فِضِّيَّةٍ من النُّقُودِ التي كنتُ أراها في بلادِ العِمالِقَةِ ! وقد كنتُ أرى
الخروفَ كُلَّهُ لَا يَزِيدُ على لُقْمَةٍ واحدةٍ يَزْدَرِدُهَا واحدٌ من أولئكِ العِمالِقَةِ ،
وأرى القَدَحَ لَا يَزِيدُ على قِشْرَةِ جَوْزٍ صغيرةٍ ، وَظَلَلْتُ أَصِفُ له كُلَّ
ما على المائدةِ ، وأَقْبِسُهُ إلى أمثاله في تلكِ البلادِ . ثم قلتُ له :

« لقد كانتِ الملكةُ تَأْمُرُ بِإِعْطَائِي كُلَّ ما يُنَاسِبُ صِغَرَ قَامَتِي وضآلَةَ
جِسْمِي ، إلاَّ أَنَّ أَفْكارِي كانتِ كُلُّها مَخْصُورَةً فيما كان يَكْتَنِفُنِي منَ

الضَّخامةِ . وكنتُ - وأنا على ظهْرِ هذه السفينةِ - أنظرُ إلى ما حَوْلِي
متعجبًا من ضآلَتِهِ ، غافلًا عن أنَّكم في مِثْلِ حَجْمِي ! »

فضحكَ الرُّبَّانُ ، وذَكَرَ نِي بِالْمِثْلِ القَدِيمِ الذي يقولُ :

« إنَّ عِيُونََ بَعْضِ النَّاسِ أَوْسَعُ من بَطُونِهِمْ ! »

لأنَّهُ رأى أَننى كنتُ - على ما أَرَعُمُه من صِغَرِ المائدةِ ، وعلى جُوعِي
الشَّدِيدِ - لَا أَتَهافتُ على الطَّعامِ ، وَلَا آكُلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا بعدَ أن
صُمتُ يومًا كاملًا .

ثم ختمَ دُعابتهُ بِقوله :

« لقد كنتُ أتمنى أَن أرى ذلكَ الصُّنْدُوقَ الذي كنتُ فِي داخلِهِ وهو
في مِناقِرِ النَّسْرِ ، ثم أراه وهو يَهْوِي - بعد ذلكَ - من ارتقاعِهِ الشَّاهِقِ
إلى البحرِ . وإني لأدفعُ مائةَ جُنْيَةٍ مَعْدُودَةٍ ثَمَنًا لِهَذَا المَنْظَرِ الرَّائِعِ
المُدْهِشِ ، الذي يَجْدُو بِكَ أن تُسجِّلَهُ في كتابِ ، لِيَقْرَأَهُ النَّاسُ في
الصُّورِ القادِمةِ ! »

وما وصلتُ إلى المرفأ ، حتى أردتُ أن أتُرك متاعِي عندَ الرُّبانِ
ليكونَ رهينةً لديهِ إلى أن أدفعَ له أجرَ سفري ؛ ولكنه أبى أن يأخذَ
مني أيَّ أجرٍ على ذلك . فودَّعته ، ودعوتُهُ مُتَّفِقًا أن يتفضَّلَ بزيارتي في
« رديف » . واستأجرتُ جوادًا ودليلاً بعدَ أن اقترضتُ من الرُّبانِ قليلاً



مِنَ النُّقودِ لأدفعها
أجرًا للدَّليلِ .
وكنتُ - في أثناء
سَيرِي - أدهشُ
لصِغَرِ المنازلِ ،
وضالَّةِ الأشجارِ ،

وحقارةِ الدوابِّ ، وقماعةِ الرِّجالِ ؛ فإخالي سائرًا في « ليليوت » - بلادِ
الأقزامِ - وأتخرَّجُ من أن أظأ بقدمي أحداً منهم في أثناء الطريقِ . وكنتُ
أصيحُ بهم أن يتنحَّوا ، وكذتُ أشتبِكُ في معرَكتينِ - بسببِ حماقتي -
وقد عرَّضتُ نفسي للهلاكِ في كلِّ واحدةٍ منهما .

خاتمة الرحلة

١ - العوذة إلى الوطن

وكان من حُسنِ حظِّي أن ذلكَ الرُّبانَ عائدٌ إلى « إنجلترا » وهو قادمٌ
من « تُنكين » ..

وما وصلنا إلى الدرجةِ الأربعينِ من خطوطِ الطُّولِ ، حتى هبَّتْ
علينا ريحٌ شديدةٌ - ولم يكنْ قد مرَّ على وُجودي في السفينةِ - إلا يومانِ ،
فاندفعنا إلى الشمالِ زَمَنًا طويلًا ، ثم حاذينا الشاطِئَ ، حتى بلغنا رأسَ
الرجاءِ الصَّالحِ .

وكانتِ الرِّحلةُ سعيدةً موقَّعةً ، رغمَ ما كابدناه فيها من جهدٍ وعناءٍ في
التغلُّبِ على العواصفِ الهُوجِ . وقد مرَّ الرُّبانُ ببلدينِ - في أثناء سفرِهِ -
فتزوَّدَ منهما بما شاء من الطعامِ والماءِ . أما أنا فلم أبرحِ السفينةَ حتى وصلتُ
إلى وطني في اليومِ الثالثِ من شهرِ يونيو عام ١٧٠٦ م ، أي بعدَ تسعةِ أشهرٍ
تقريبًا من خلاصِي .

لِيَحْيِيَنِي؛ فَرَأَيْتَهُمْ جَمِيعًا أَقْرَامًا ضَيْئَالًا، وَخَيْلٌ إِلَىَّ أَنِّي بَيْنَهُمْ عِمْلَاقٌ عَظِيمٌ
بَائِنُ الطُّولِ. وَلَقَدْ طَالَمَا قَلْتُ لَزَوْجَتِي: «إِنَّكَ غَايَةٌ فِي الضَّآلَةِ وَالنَّحَافَةِ.»
لَأَنِّي رَأَيْتُهَا وَابْتَنَيْتُهَا أَمَامِي كَأَنَّهُمْ حَشْرَاتٌ صَغِيرَةٌ...!

وَهَكَذَا أَصْبَحْتُ غَرِيبَ الْأَطْوَارِ؛ فَارْتَابُوا فِي صِحَّةِ عَقْلِي، وَسَلَامَةِ
أَعْصَابِي، وَحَسِبُونِي - كَمَا حَسِبَنِي الرَّبَّانُ مِنْ قَبْلُ حِينَ رَأَى أَوْلَ وَهَلَّةٍ -
قَدْ جُنِنْتُ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ! وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ كُلُّهُ مِنْ سَبَبٍ إِلَّا
أَنِّي قَدْ تَعَوَّدْتُ رُؤْيَةَ الْعَمَاقَةِ وَمَا يَكْتَنِفُهُمْ مِنْ ضِخَامِ الْأَشْيَاءِ؛ فَصَفَّرُ
فِي عَيْنِي كُلُّ مَا رَأَيْتُهُ فِي بِلَادِي، مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ. وَفِي هَذَا
دَلِيلٌ عَلَى مَا تُحْدِثُهُ الْعَادَةُ مِنْ أَثَرٍ فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا.

وَلَمْ يَمُضِ عَلَيَّ زَمَنٌ قَلِيلٌ، حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْأُمُورُ فِي نَصَابِيهَا؛ فَالْتَمْتُ
أَنْ أَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَقْبَلْتُ عَلَى أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي؛ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ
أَشَدَّ الْفَرَحِ. وَرَأَتْ زَوْجَتِي أَنَّ تَسْكُونَ هَذِهِ خَاتِمَةَ الرَّحَلَاتِ؛ فَابْرَمَتْ
أَمْرَهَا إِلَّا تَدْعَنِي أُعْرِضُ نَفْسِي - بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ - لِأَخْطَارِ الْأَسْفَارِ،
وَرُكُوبِ الْبَحَارِ،

الرحلة الثالثة: جلنفر في الجزيرة الطيارة

٢ - فِي بَيْتِ «جَلْفَر»

وَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَنْزِلِي، وَقَرَعْتُ بَابَهُ، حَتَّى فَتَحَ لِي أَحَدُ الْخَدَمِ،
فَانْحَنَيْتُ لِأَدْخُلَ - حَذَرًا مِنْ أَنْ يُصَدِّمَ رَأْسِي بِأَعْلَى الْبَابِ - وَقَدْ بَدَأَ لِي
الْبَابُ صَغِيرًا كَأَنَّهُ نَافِذَةٌ صَغِيرَةٌ...!

وَمَا رَأَيْتُ زَوْجَتِي، حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلَى لَتَاعَتِي وَتَقَبَّلْتَنِي - وَهِيَ فَرِحَانَةٌ
بِعُودَتِي سَالِمًا - فَانْحَنَيْتُ انْحِنَاءَةً طَوِيلَةً أَمَامَهَا، حَتَّى أَصْبَحْتُ دُونَ
رُكْبَتَيْهَا، وَقَدْ خَيْلَ إِلَىَّ أَنَّهَا



- لَقِصْرِهَا - لَنْ تَصِلَ إِلَىَّ إِلَّا إِذَا
انْحَنَيْتُ أَمَامَهَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ. ثُمَّ
أَسْرَعَتْ إِلَىَّ وَوَلَدَايَ، وَرَكَعَا عَلَيَّ
رُكْبَتَيْهِمَا حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِي، فَلَمْ
أَسْتَطِعْ أَنْ أَتْبِيَهُمَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَقَفَا
أَمَامِي، لِأَنِّي كُنْتُ قَدْ اعْتَدْتُ - مِنْذُ
زَمَنٍ طَوِيلٍ - أَنْ أَقْفَ مَرْفُوعَ

الرَّأْسِ مَصُوبًا بِعَيْنِي إِلَىَّ أَعْلَى. ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى مَنْ وَفَدَ عَلَيَّ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ